القائد كلاويزفينز
آراؤه
عن الحرب الشاملة

تأليف
محمد عبدالفتاح إبراهيم

القائد كلاوزفيتز
آراؤه عن الحرب الشاملة

البكباشى (ا . ح)

محمد عبد الفتاح ابراهيم

بإدارة الجيش

مطبوعات مجلة الجيش

١٩٤٧

الحرب فى رأى كلاويزفيتز

« . . . الحرب تنازع بين المصالح لا يمكن حسمه »
« إلا بالدماء ، ولهذا تتميز عن كل المنازعات »
« الأخرى ، وهي أشبه بالتجارة التى هى أيضاً »
« تصادم بين مصالح البشر منها بأى فن آخر ، »
« وخير من ذلك أن تقاس الحرب بالسياسة »
« الأهلية التى لا تزيد عن أن تكون نوعا من »
« الإتجار الأعم صورة والأكبر درجة . . . ، »
« وعلة هذا أن السياسة الأهلية هى المستودع »
« الذى تتكون فيه الحرب لتستكمل كيانها ، »
« وفيها أيضاً يمكن أن ترسم أخص صورها »
« وأشكالها فى منهاج واضح لا لبس فيه ، كما توجد »
« مميزات الكائنات الحية فى جراثيمها . . . . »

كتاب الحرب

الجزء الثانى — الباب الثالث

— ١ —

تقدمة

يرجع الكثيرون من الكتاب العسكريين اليوم إلى فقرات كثيرة من مؤلفات الكاتب العسكرى الألمانى كلاوزفيتز كمراجع للبحث يستندون اليها للدفاع عن مبدأ خاص أو أصل عام من أصول الحرب ..؛ وكلاوزفيتز يعتبر مهما تباين الناس فى تقدير أهمية مؤلفاته أستاذ المدرسة العسكرية الألمانية ؛ هذه المدرسة التى يمكن أن يقال بأن لها أنصاراً كثيرين — من ناحية التفكير الثقافى — بين كبار العسكرين وصغارهم فى كل دول العالم .

وهؤلاء الأنصار برغم هويتهم الأممية ينقلون الكثير مما فى دراساتهم عن أصولها الألمانية المنقولة عن كلاوزفيتز ؛ وهذا هو الأمر الذى يجعل لمؤلفات كلاوز فيتز قيمتها الكبيرة ...

ومع هذا فنحن لا ننكر إننا قد نستطيع القول — عندما ننظر إلى دراسات كلاوزفيتز نظرات عابرة — بأن فى هذه الدراسات بعض الإبهام والغموض ، سيما التعاليم التى يمكن أن تطبق فى ضوء صورة الحرب البرقية التى كانت جيوش العالم تتقاتل على أساس أصولها المستحدثة حتى الأمس القريب .. ؛ وعلة هذا الإبهام والغموض أن كلاوز فيتز

لم يتبسط فى كتبه لتكون تعاليمه فى مستوى القارىء العادى ، بل لعله كان يكتب لطائفة خاصة من الناس ، وهذا أمر يبدو واضحاً فى كتابات بعض أساطين الاستراتيجية الذين سبقوا كلاويزفيتز أمثال فيجيتس ودى ساكس وفردريك الأكبر ، ثم أن كلاويز فيتز — على ما يبدو — كان متعجلاً فى كتابه حتى أنه لم يراجعه عندما انتهى من تسطيره .

والشىء الذى يجعل الكثيرين يعزفون عن مطالعة كتابات كلاويزفيتز قراءة درس وبحث .. هو أنه من الضرورى أن يدرس كلاويزفيتز فى ضوء دراسة حياة الرجل نفسه ؛ وفى ضوء دراسة العصر الذى عاش فيه ... ثم فى ضوء ما وصل إلى أيدينا من تعاليم نابليون العسكرية التى أجمل فيها تعاليمه للحرب ، وهى مسألة تبدو بدورها مجهدة غير مستطاعة لهواة الاستراتيجية الذين يقرأون دائماً مثل هذه المؤلفات العميقة التفكير قراءة عابرة كل ما يعنيهم منها هو الخروج ببضعة سطور تصلح للاستناد اليها كمراجع فى المحاضرات والمؤلفات العسكرية . . .

وقد جنح بعض الناس إلى الإقلال من أهمية مؤلفات كلاويزفيتز على أساس أن الرجل هو واضع أسس التخطيط للاستراتيجية الألمانية ، وما دامت ألمانيا قد هزمت فان الأصل غير حرى بالدرس ولاقمين بالمراجعة

والواقع أن ألمانيا قد هزمت فى كل ميادين الحرب فى أوروبا وأفريقيا ما فى هذا من شك ؛ وقد وقع الماريشال كتيل رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية الأكبر منذ فجر الحرب حتى بداية الهزيمة فى الغرب ميثاق التسليم للحلفاء فى ظهر التاسع من مايو عام ١٩٤٥ ؛ وكان التسليم

بلا قيد ولا شرط . . ، ولكن ألمانيا قد هزمت بالأمس كما هزمت مرة أخرى من قبل فى ذات هذا القرن لأنها أخطأت تقدير موارد الحلفاء الذين لا يستطيعون فى بداية أي حرب تثيرها ألمانيا البروسية إلا أن يقفوا موقف الدفاع حتى يحسنون حشد مواردهم لتغيير اتجاه المد . . ، هزمت ألمانيا لأن استراتيجييها المدنيين لم يحسنوا العمل لامع . . ولا ضد عامل الوقت ، ثم لأن السياسيين الألمان لم يقدروا قط أن الجهد البشرى له طاقة محدودة لا يمكن تجاوزها . . ؛ كما لم يقدروا أن الجنس البشرى وإن مجد القوة وأحبها وأعجب بها لا يقر الطغيان . . ولا يحتمل نير المظالم والمذابح التى توجه لنشر الرعب والمخاوف بين الأهلين العزل من كل سلاح اللهم إلا مشاعر المقت والكراهية التى تملأ قلوب هؤلاء الأفراد ، ولا يلبث الناس أن يقوموا بدور فى الصراع لا يمكن القول بأنه دور سلبى . . .

كان هذا هو سبب هزيمة ألمانيا فى الأمسين القريب والبعيد . . ، ولا يمكن أن يكون معنى هزيمة ألمانيـــا .. أن أصول الحرب الألمانية فاسدة ولا أن القادة الألمان حمقى لم يكونوا يصلحون للدور الذى احتملوا عبأه كما يقول بعض كتاب هذا العصر . . فهذا حديث ماجن لا أصل له . . ، ولو قدر لأى من روملل أو كيسلرنج أو جوديريان أو بوك أو ليست أو ليب وغيرهم وغيرهم . . . أن يكون فى صفوف الحلفاء لجاء بالعجائب فى هذا العالم الذى لم ينجب قائداً نابغاً فذاً منذ عصر نابليون ؛ ولكن العقلية البروسية وأسلوب آلة الحرب الألمانية هما علة فشل كل من هؤلاء القادة فى النهاية عندما يقف عامل الوقت فى الجانب المضاد . . .

ولهذا فانى اؤمن الإيمان كله بأنه يجب أن تدرس معارك هؤلاء القادة . . . دراسة بحث ، وأن يكون هذا الدرس لا بالوقوف فى خطوط الحلفاء . . بل أن تدرس من مراكز قياداتهم مع تقدير الموقف الادارى الذى كان كل منهم يواجهه . . ، وفى هذه الدراسة نفع وأى نفع سيما إذا تعمقنا إلى دراسة عقلياتهم وأخيلتهم . . ؛ وعلى ذات القياس قادة الحلفاء ... فندرس تعـــاليم الحرب البرقية . والتدابير التى جاءت لمواجهتها ... ، ولكننا لا نستطيع هذه الدراســـة ولا تلك إلا إذا درســـنا على التخصيص تعاليم الحرب التى جاء بها الألمان منذ أكثر من قرن من الزمان .. فان لهذه الدراسة مكاناً رحباً فى كل دول العالم الغربى.

ولا نستطيع أن ندرس أصول الحرب الألمانية إلا بدراسة أبعد التعاليم التى سبقت ڤون كيتل .. وڤون شليڤن .. بل وحتى ڤون مولتكه الكبير ؛ هذه التعاليم التى جاء بها كلاوزڤيتز الرجل الذى عاصر نابليون وبلوخر وشارنهورست ؛ التعاليم التى جمعت أبرز الأصول وأقواها ، والتى لم يغير من أصولها وقواعدها تطور صور القتال وتطور صور الاستخدام التكتيكى للوحدات المقاتلة تبعاً لتطور الأسلحة وتبعاً لإيجاد الآلة ذات الاحتراق الداخلى التى تسير على شرائط وتحصن بدروع من الصلب ..، وتبعاً لإيجاد المدفعية التى تطير فوق السحاب فتنقل مسرح الحرب لمئات الأميال فى ساعات ...

* * *

ولا يمكن أن تكون هذه الدراسة وقفاً على العسكريين وحدهم فان الحرب عندما تجىء تؤثر فى حياة الناس عامة ، بل كما يقول والترميلز

أنها تهدد كل منشأة اجتماعية وتحد من إنتاجها ومن كفاية تنظيمها السياسى ، بل أنها تقلب الأوضاع فى هذا المجتمع ولا توجد أية ناحية فيه لا تتأثر فتتعدل أو تتغير تماماً بسبب الحرب ...

والحرب ليست عملاً من صنع الله ... ، بل تنشأ من أعمال يعملها الأفراد والجماعات والأمم ... أو يفشلون فى عملها .:؟ فهى إما وليدة السياسة القومية أو وليدة النقص فى هذه السياسة ، والناس يقولون إنه من الحماقة أن تترك سياسة الحرب للعسكريين وحدهم أو للسياسيين وحدهم .. ، أو حتى للاثنين معـــاً ، فهى واجب الأمة كلها بمثلها لا بأفرادها فان مثل هذه السياسة لا يمكن أن تترك المناقشات العامة وإن كان نجاحها يتوقف على اصدار وعزيمة وانتاج كل فرد فيها ؛ وقد كان بعض الناس يقولون إن الجهل بالمسائل العسكرية يعاون على كراهية الحرب .. هذه الكراهية التى مكنت فى عصور ســـابقة من إيجاد أناس يعملون للسلم فى كل مكان ..؛ ولكن هذا لم يعد مستطاعاً اليوم ، بل أن الألمام بالمســائل العسكرية قوة تضمن حياة الناس فى أمن وسلام ...

وهذه الدراســـة هى التى مكنت من إيجاد طبقة من الاستراتيجيين المدنيين أمثال واشنجتون ولينكولن ولويد جورج وكليمنصو وويلسون ثم تشرشل وروزفلت ..، وطائفة من المؤرخين ورجال الاقتصـــاد والصناعة أمثال راثيناو .

أو الصحفيين أمثال تروتسكى وبريستلى ، ورجال الثورات السياسية أمثال ماركس وانجلز ...

ولا يمكن أن تدرس الاستراتيجية للعصر الحديث دون الرجوع إلى أصولها التي جاءت عنها ..؛ والاستراتيجية التي وضع أصولها كلاوزفيتز في تعاليمه هي المرجع الذي يجب أن يقرأه كل فرد اليوم مدنياً كان أم عسكرياً .

إن المسائل العسكرية في ضوء الظروف الحديثة تتصل وثيقاً بالمسائل الاقتصادية والسياسية الاجتماعية ، ومن الصعب أن يتحدث الفرد عن الاستراتيجية العسكرية وحدها ، لقد كان نجاح هتلر في غزو روسيا عام ١٩٤١ يرجع إلى هذه الحقيقة ، بل ومن الضروري أن ندرك بأن كبار الزعماء في أوروبا كانوا حتى سقوط فرنسا يفكرون في أسلوب القرن السابع عشر عندما كان من الممكن أن توضع السياسة والحرب والاستراتيجية والتكتيك في درجات منفصلة عن بعضها البعض ..، ولكن في عصرنا الذي نعيش فيه ، وبالتبعية في العصر الذي سيجيء بعد هذا لا يمكن .. ولن يمكن الفصل بين السياسة والاستراتيجية .

إن الحرب تفرض نفسها على كل الناس .. وما دامت تهم كل الناس فمن الضروري أن يعرف هؤلاء أولاً أنها تهمهم وتهتم بهم .. ففي السلم والحرب على السواء .. يجب أن يتفهموها ..، ومن أجل هذه الضرورة الملحة وحدها ..؛ بذل هذا الجهد . . . الذي أعرف وحدي مبلغه . . . لاخراج هذا الكتاب .

وإني إذ أقدم باقة من تعاليم كلاوزفيتز في غمرة التعليق عليها مقدماً معها الأصول التي نقلت عنها ..، والصلات التي تربطها بصورة الحرب الحديثة كل هذا في إيجاز حوول فيه إظهار أدق وأبرز هذه الأصول

والتعالم لأود أن يعنى القارىء بمطالعتهـــا ... إن كان يجد من وقته ما يقضيه فى دراسة عميقة لها ..، دراسة تعوض على بعض ما بذلته من جهد ..، وإن كنت لا أنكر أن هذا كله لا يزيد عن أســـاس قد يحسن غيرى استخدامه لبناء صورة أروع وأكمل ، فلا بد أن تكون قد غابت عنى أشياء وأشياء ، ولكن هذا هو كل ما استطعته و«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

— ٢ —

كلاوزفيتز اليوم ..

ومرة أخرى منذ أن انتهى الناس إلى اعتبار كلاوزفيتز أبرز شخصية في محيط الكتاب العسكريين يعود الرجل ثانية ليكون هو وتعاليمه مشكلة غامضة تتطلب الإيضاح . . . الإيضاح التبسيطى الذى يمكن كل فرد من دراسة صحيحة ... والعلة في هذا هو أن المكتبة العسكرية تتأرجح بين رأيين متناقضين بالنسبة لتعاليم كلاوزفيتز . . . لا من ناحية قيمتها وحسب ... بل ومن ناحية إمكان تطبيقها فى ضوء الحرب الحديثة بالرغم من أن الألمان فى كل عملياتهم البرقية يرجعون إلى الأصول التى وضعها شليفن عن أستاذه الروحى كلاوزفيتز .

ونحن فى غمرة هذا التأرجح نواجه سيلاً متزايداً من الكتب المنقولة عن الأصول الألمانية لمؤلفاته مقدمة بقلم نفر من الإخصائيين فى الدراسات العسكرية القديمة ، ثم مجموعة طيبة من الكتب الصغيرة التى تتحدث عن بعض النواحى الخاصة فى تعاليمه وآرائه من قلم بعض الضباط النابهين والمعقبين العسكريين الذين يعنون بدراسة المسائل العسكرية الفنية ، ولكننا نواجه من الجانب الآخر بعض الكتب والرسائل يحاول أصحابها التقليل من أهمية مؤلفات كلاوزفيتز دون أن يعرضوا للدراسات التى تمجد تعاليمه بالنقد والتجريح ، وإذا كان لا محل هنا لنتعرض لوجهة نظر الذين

يرون فى تعاليم كلاويزڤيتز ما يستحق الدرس .. فإن من واجبنا أن نقف تجاه من يعملون للتقليل من قيمة دراسات كلاويزڤيتز لنقدر مايستندون إليه في دعواهم هذه ... والواقع أن الأخيرين إنما يستندون فى حملتهم هذه لا إلى تباين الأوضاع العامة بين التشكيلات العسكرية والتسليح ووسائل النقل التى نراها اليوم . . والتى يمكن أن تجيء فى ركاب الغد وبين تلك التى كانت فى أيام كلاويزڤيتز وحسب ، بل على أساس أن مؤلفات كلاويزڤيتز لا تزيد عن مجموعة الآراء المبهمة الغامضة ، وإن كان لم يغب عنهم أن كلاويزڤيتز عند ما وضع هـذه التعاليم كان متأثراً بالحروب التى خاض غمارها نابليون .. وأنه فى ضوء هذه الصورة وضع تعاليمه العامة التى قد يصلح الكثير منها لمواجهة كل ما يمكن أن يكون التغيير فيه وقفاً على وسائل الإستخدام .. ولكن الذى يجب أن لا يغيب عنا هنا بالنسبة لدعوى هؤلاء هو محاولتهم إتهام كلاويزڤيتز لأنه لم يكن أصيلا عند ما أصاب البحث ووفق فيه ، ثم لم يصب عند ما حاول أن يكون أصيلا فى البحث برغم إعترافهم بأنه حاول هذا فى المسائل السطحية البسيطة .

ومثل هذا التضارب بين مدرستين ثقافيتين لا يمكن أن نوليه ظهورنا ولا أن نغفله ... ولا أن ننصر إحدى المدرستين على الأخري إسرافاً منا لنصرة قضية إحداها دون ما حق يبرر هذا التصرف من جانبنا .. ولهذا قد حاولنا فى هذه الصفحات أن نقدم آراء كلا المدرستين فى غير ما إفاضة أو إيجاز ... بل عرضنا لها فى حيز متماثل ... وإن كنا لانستطيع إطلاقا أن نسرف لكراهيتنا للعسكرية النازية فنطعن فى أصولها . . . وإلا كنا نهدم مدرسة لها قوتها وأثرها دون ما حجة لهـذا التدمير إلا الفكرة

الذاتية.. وهذه روح يجب أن تبرأ منها المؤلفات الدراسية . والواقع أننا إذا كنا لا يمكن أن نتقبل آراء أولئك الذين يقولون بأن مؤلفات كلاويزفيتز يجب أن تطبع بكل لغة ، ليحملها القادة من كل الرتب معهم إلى ميدان القتال فيما يحملون معهم من أسلحة الدفاع الشخصي ، فيحتكمون إليها كلما اختلفوا في تقدير أمر ويراجعونها كلما أنسوا إلى مشكلة تواجههم من مشكلات الحرب ، إذا كنا لا نتقبل هذا فلا يمكن إطلاقاً أن نتقبل أيضاً ما يقوله بعض المتأخرين في نقدهم لمؤلفاته إنه (لا يزيد عن شبح لامع لجنرال بروسي لقد مات منذ زمن بعيد فطوى مع الزمن . . ، وإن أعماله ليست أكثر من نجاحه في دفع أجيال من الضباط أركانى الحرب السذج !!!! للعمل عبثاً لمحاولة إلقاء بعض الضوء على هذه التعاليم التافهة !!!! بالإضافة إلى تعقدها .. ولهذا فإن إسراعنا في التخلص من هذا التأثير المضطرب الذى لتعاليمه يكون أصلح وأوفق . . .)

وقد لا يكون من حقنا أن نسوق حديث هذا النقد دون أن نعلق عليه .. ولكني في الواقع قصدت أن أقدمه لأوضح ناحية من التعنت الذى اندفع فيه بعض نقاد كلاويزفيتز ... ثم وجدوا مرتعاً خصباً في أذهان القراء العسكريين من طريق غير مباشر تبعاً لضعفنا نحن في تفهم هذه التعاليم .

فالفكرة هي إذن — بالنسبة لموقف مؤلفات كلاويزفيتز وتعاليمه من تقدير القراء العسكريين — أنه على درجة تفهم هذه التعاليم تكون درجة نجاح الفرد في تقديرها . . . ؛ يقول الدكتور هيربرت روسنسكى أستاذ الدراسات الفنية عن تاريخ العسكرية الألمانية في جامعات أمريكا ، والمحرر لعدة شركات ألمانية للنشر لعدة أعوام طوال قبل وصول هتلر

إلى الحكم . . . » من الضرورى أن تدرس تعاليم كلاوزفيتز ، ولكنها يجب أن تدرس فى صورة مبسطة للعسكريين الأحداث . . وفى صورتها المعقدة لكبار العسكريين . . وعلى الأخص أولئك الذين يتولون تدريس التاريخ العسكرى ويقومون بالتعقيب على السياسة والاستراتيجية لأمم العالم العسكرية . . . »

والواقع أن الفرد ليقف موقف الحيرة والدهشة بين ما يقال فى نقد كلاوزفيتز . . . وفى الدفاع عنه . . . ، وفى مسألة كمسألة تقدير المدرسة التى أوجدها كلاوزفيتز لا يمكن الوقوف بين بين ، فليس فى الأمر مجاملة لفردما . . ، وقد يكون من رأيى أنه من الضرورى أن يعنى العسكريون بدراسة أعمال ومؤلفات كلاوزفيتز . . ولكنها دراسة فى ضوء العصر الذى نعيش فيه لا فى ضوء الزمن الذى عاش فيه كلاوزفيتز نفسه . . . لأنه مهما قيل فى نقده أو نقد تعاليمه ، مدرسة لا يمكن أن ينكر تأثيرها . . .

على أننا من أجل هذا يجب أن نحاول أن نعيد إلى الحياة العامل أو المؤثر الأصلى الذى كان وراء هذه المؤلفات ثم نربط هذا كله بالمشاكل الفنية فى تعاليمنا العسكرية الحالية ، ومالم ننجح فى هذا فالأقرب إلى الإحتمال أن أولئك الذين تصدوا لنقد تعاليم كلاوزفيتز ينجحون فى دعواهم ؛ وهو نجاح يجىء من طريق غير مباشر . . لأنه يستند إلى ضعفنا نحن فى إمكان تفهم هذه التعاليم . . . ، والأمر الآخر الذى يعاون من هذا النقد . . هو فشل العسكرية الألمانية فى الحرب العالمية الثانية ، هذه العسكرية التى كان هو نبيها المرسل تتبع تعاليمه مع القليل من التحوير والتعديل لمسايرة الحاضر بأسلحته وتنظيمات وحداته . . .

* * *

وكان حظ كلاوزفيتز فى هذه السنين العشرة الاخيرة أكثر من حظه فى كل السنوات التى أكملت القرن الماضى أو التى جاءت فى بداية هذا القرن . . . ، فكثر التحدث عن كلاوزفيتز وعن تعاليمه وأثرها ومدى ما يجب أن يبذل من جهد فى مطالعتها أو الرد عليها . . . وهذه المؤلفات بما فيها من مدح أو قدح . . . وما فيها من شروح أو نقد كثيرة يهمنا منها فى الواقع ما جاء باللغة الإنجليزية وعلى الأخص ما كان من قلم الكتاب الذين يجيدون الألمانية إجادة مكنتهم من إدراك حقيقة توجيهات كلاوزفيتز لتعاليمه . . . والأغراض أو الأهداف التى يرمى إليها . . .

وفى هذه الكتب تستطيع أن تصل إلى أعماق ما كان يقصده كلاوزفيتز ثم لم يوفق إلى كتابته لتعجله فى التحرير . . . من جهة ولأنه كان يكتب لطائفه خاصة من الناس من جهة أخرى ...

ولقد يمكن أن تجد أكثر من مؤلف فى متناول يدك . . . ولكن فى دراستنا لكلاوزفيتز اليوم من رأيى أن يقف القارىء بإزاء كتابين اثنين أولهما « الآراء الحية من كتابات كلاوزفيتز وآرائه » وهو عنوان لم يوسم به الكتاب أصلاً فى رأيى ولكنه أصلح له... وفى هذه المجموعة التى قدمها « الفريد منديل » نلقى مجموعة طيبة من آراء كلاوزفيتز وتعاليمه مع العناية على الأخص بموضوعاته الفذة...القائد. .القوى المعنوية ... عناصر الحرب ... المعركة ... ثم نقاشه الطويل للهجوم والدفاع فى صورة تكفى لإيضاح كيف بحث كلاوزفيتز هذا كله ... كما خصص جزءاً

كبيراً لتحليله للحرب جملة ..ثم مناقشته للنظرية العسكرية.. وهذا الكتاب من إصدار مجلة المشاة الأمريكية .

وهذا الإختيار الموفق من صاحبنا قد مكن من إعطاء القارىء كفاية من التفاصيل التي توضح جهد الكاتب في تنظيم مختلف النواحي التي عرض لها كلاوزڤيتز بالبحث ولكنه يقدمها في صورة مبسطة تمكن من تفهم حتى أعقد ما كتبه كلاوزڤيتز من الآراء العامة عن طبيعة الحرب التي هي آخر ما كتب . . .

وقد استطيع أن أعد بأن أقدم للقارىء هذا الكتاب يوماً ما بالعربية كرأى لكاتب له مكانته ... على الأقل لتمكن أن أقارنه بالصورة التي كتبتها أنا هنا نتيجة لدراسة كلاوزڤيتز من مؤلفاته ...

والكتاب الثاني هو كتاب « صانعو الاستراتيجية » لادوارد ميدايرل ؛ وهو بدوره من طبع أمريكا لعام ١٩٤٤ إصدار مطبعة جامعة برينستون ، والأصل في هذه الدراسة تقديم تطور الاستراتيجية بين عهدى ميكيافيللى وهتلر . . . ولا يعنينا من الكتاب إلا الجزء الخاص بالقرن التاسع عشر . . . عندما عرض لشخصية نابليون في ضوء أراء ترجمة جوميني وكلاوزڤيتز لتعاليم نابليون . . .

والفصل الخاص بكلاوزڤيتز من قلم روسيفلس Rothfels وهو رجل يعتبر حجة في الدراسات العسكرية الألمانية ، ويستند روسفيلس في تقديمه لتعاليم كلاوزڤيتز إلى الطبعة الخامسة من كتابه « في الحرب » الطبعة التي صدرت عام ١٩٠٥ وقدمها الجنرال فون مولتكه .

وفي هذه الدراسة نجد روسفيلس يعرض لتعاليم كلاوزڤيتز في ضوء

الجمع بين فلسفة كلاوزفيتز وتجاريبه ثم ينفلت إلى العصر الذى أثر فى كلاويز فيتز وأثر أصلا فى فن الحرب . . . وهو عصر الثورة الفرنسية ولا ينسى صاحبنا أن يعرض إلى سبب صعوبة ترجمة كلاويزفيتز ومدى تعارضه مع تفهم غيره من الذين ترجموا حكم نابليون وسطروا تعاليمه محللاً نواحى نظرية كلاويزفيتز عن الحرب الشاملة ، ولا يصل إلى نهاية دراسته حتى يكون قد أكمل بحث كل العـــوامل التى ذكر كلاويزفيتز تأثيرها فى الحرب . . .

— ٣ —

كلاوزفيتز الرجل

كان كلاوزفيتز من البداية جندياً عملياً ، وقد انصرف إلى الجندية كحرفة — تبعاً لروح العصر الذى عاش فيه — وهو لايزال صبياً فى الثانية عشرة من سنى حياته ؛ وخاض غمار عدة حملات حربية قبل أن يصل الخامسة عشر ، ثم قام بنصيب فى معارك عام ١٨٠٦ . . . ثم فى التقهقر الروسى عام ١٨١٢ ، ثم فى حرب التحرير ضد نابليون (١٨١٣ — ١٨١٥) لجمع بين التجارب وبين المعلومات العسكرية التى استطاع أن يحصل عليها باختباراته الشخصية ثم تلك التى استطاع أن يحصل عليها نتيجة اتصاله الوثيق بعدد من العسكريين الممتازين الذين اشتهروا فى تاريخ ذلك الأمد . . . .

وكان الجمع بين هذه التجارب والاختبارات الواسعة النطاق ، وبين الاتصال الطويل بالعسكريين الممتازين ، مع هبة عملية خاصة جاءت بالطبيعة معه ، ثم امتاز بذهنية جبارة تستطيع أن تفحص وأن تدرس عن قرب جميع المشاكل النظرية ووسائل تطبيقها . . . هو الذى قدم كلاوزفيتز على كل المفكرين العسكريين الذى صحبوه أو جاءوا فى إثره . . .

ولا شك أنه مع تيقننا بعدم كفاية ما لقن له من دروس فى المدرسة العسكرية . . . لا نستطيع إلا أن نقول بأن كلاوزفيتز كان شخصاً نادر

المثال لأنه ولد بالطبيعة رجل نظريات ، وأى شىء تلمسه إنما يكشف عن أسرار فيه لم يفكر فيها قبله ؛ وفى أولى مجهوداته العامة أصاب فى المشكلة الأساسية المعقدة ، مشكلة التفرقة فى التعريف بين الاستراتيجية التكتيك وخرج من دراسته بقوله . . . إن التكتيك هو استخدام القوات المسلحة فى القتال ، وأن الاستراتيجية هى الانتفاع بالقتال والمعارك لادراك الغرض من الحرب .". . هذا التعريف الذى بات أساس كل التطور فى الفكر العسكرى الألمانى منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، بل والذى لم تمسه يد التعديل والتطور من ذلك الوقت حتى الآن ، ومثل هذا صحيح أيضاً عن كل خطواته أو تعاليمه الأخرى .

وكان التوازن الملحوظ بين هاتين الناحيتين الواضحتين فى طبيعة نفسه الناحية العملية والناحية الفلسفية — هو الذى وطد من أفضليته على غيره ممن يسلكون ذات الدرب الذى يسلكه فى الحياة ، وقليل من الناس هم الذين توفرت فيهم حساسية أدق — من الناحية النظرية اللازمة — ليكونوا واضحى الأراء متزنين ؛ كما أن فرداً لم يفضله قط فى تقديره للاستخدام العملى التجريبى فى أى شىء يتطلب هذا . . ، والواقع أننا فى دراستنا لكلاوزفيتز قد نرقبه فى وقت ما جد مشغول بأن يوضح فى إفاضة مسألة مبهمة غامضة لاقيمة واضحة لها . . ، ومثال هذا نجده فى نظريته الشهيرة عن القيمة الكبيرة التى للدفاع . . أو اكتشافه الذى لم يكن أقل إثارة للمناقشة والجدل عن الصورة المحددة للاستراتيجيه . . . نلقاه فى وقت آخر جامد الحديث موجز الإيضاح . . . ولعل هذا يرجع إلى أن كلاوزفيتز قد عنى العناية كلها فقط بالنواحى التى تتطلب التطبيق الصحيح لأصول القتال .

فهل كان كلاوزفيتز موزع التفكير كما يقولون ؟ ! ! وهل هذا هو السبب فى أننا لا نلقى حديثه فى الكثير من المسائل العامة كاملاً فى عرض واحد متصل فى أى من مؤلفاته ؟ . ؛ بل نلقاه مبعثراً فى صفحات عدد لا يقل عن ستة من مؤلفاته ؟ . ؛ صحيح أن كلاوزفيتز لم يعن العناية الكافية بالحلقة الكبيرة الأهمية التى تربط بين الناحيتين العملية والنظرية في تعاليمه ... والتى كان من الممكن أن توضح الغرض الحقيقى الذى يقصده ويتجه نحوه .. ولم تنل هذه الناحية إلا قدراً تافهاً من التفاته وتقديره.. ولكن صحيح أيضاً أن كلاوزفيتز كان موجهاً بروح البحث الطليقة للوصول إلى طبيعة الأشياء . . هـــذه الروح التى سيطرت على الفلسفة الألمانية ، ولهذا فإن كلاوز فيتز بينا تخصص فى الميدان العسكرى اندفع إلي دراسات واسعة لأسس المعرفة للأصول النظرية ووسائل تطبيقها فى الفنون العملية بالإضافة إلى فن الحرب . . ؛ ولهذا مهما قيل عن توزع تفكيره فإنه من الضرورى أن نقول بأنه فى ضوء هذا التنسيق بين الفلسفة والتجربة استطاع كلاوزفيتز أن يحلل الحرب تحليلاً منقطع النظير . . . وهو بالإضافة إلى تبعيته للروح الألمانية التى وجدت فى القرن الثامن عشر فإنه كان رجل عمل دربته التجارب . . . وثقلت من تجاربه دراسته للتاريخ ولهذا توفرت فى حياته الفرص التى مكنت من نجاحه فيما عرض له من بحوث . . . مهما قيل فى درجة هذا النجاح أو مداه . . .

* * *

ولد كلاوزفيتز (كارل فون) بمدينة بورج قرب مجدبورج الألمانية فى اليوم الأول لشهر يونيو عام ١٧٨٠ من أسرة بولونية الأصل نزلت ألمانيا فى أواخر أيام القرن السابع عشر . . . ، والتحق صاحبنا بالجيش

الثانية عشرة من عمره عام ١٧٩٢ وشهد القتال فى حملة بلاد الراين ١٧٩٣/١٧٩٤ . . . ورقى إلى رتبة ضابط فى حصار ميتز Mainz وهو لم يبلغ الرابعة عشر بعد . . .

ثم عاد بعد أن سرحوه من خدمة الجندية . . . كانت خدمته القصيرة الأمد كجندى وكضابط قد خلقت فى أفق حياته أخيلة جديدة .. ولكن كيف يستطيع أن يستكمل حاجته من العلم . . . فهو فقير . . . ثم مات أبوه فازداد فقراً على فقر ... وبات كفاح الحياة أقتم صورة فى عينيه ..؛ وإذا كان صحيحاً ما يقال إن الفقر هو أساس النبوغ .. فإن كلاويزڤيتز كان يملك من هذه الناحية الشيء الكثير . . . وانتهى به كفاحه الصادق إلى أن وصل إلى صفوف الكلية الحربية لصغار الضباط فى برلين عام ١٨٠١ وهى الكلية التى كان يتولى قيادتها شارنهورست نفسه .

وأدرك شارنهورست نبوغ الطالب الصغير فعنى بتوجيهه عناية كان لها أثرها فى حياة كلاويز ڤيتز ... وفى تطوره العقلى والعلمى .

وانتهى كلاويز ڤيتز من دراسته . . وعمل ياوراً للبرنس أوجست ثم خدمته فى معركة (چينا) عام ١٨٠٦ وأسر معه فى (بريزلاو) . . وبقى أسيراً فى فرنسا وسويسرة لمدة عامين لم يشهد خلالها قتالاً ولكنه كان مشغولاً بالعلم العسكرى . . ولهذا لم يكد يرجع إلى بروسيا عام ١٨٠٩ حتى عين فى وزارة الحرب الألمانية كمدرس فى المدرسة العسكرية التى تخرج منها من أعوام قلائل . . . ثم كمدرس لولى العهد مع معاونته الشارنهورست فى تنظيم الجيش البروسى . . ولم يحل هذا كله دون أن يتزوج عام ١٨١٠ من الكونتس مارياڤون بروهل .

ولكن كلاوزفيتز الجندي المحترف يتوق إلى أن يشهد القتال . . وإذا لم تكن بروسيا قد تأهبت له بعد فليبحث هو عنه . . ولهذا لم يأت عام ١٨١٢ حتى اشترك مع عدد من الضباط البروسيين فى القتال كضباط فى الجيش الروسى الذى أعد لقتال نابليون .

وخدم مع الجنرال Phull ثم تحت قيادة الجنرال Pahlen فى وتيبسك وسمولنسك ؛ وبعد معركة كالوجا أرسل إلى صحبة جيش وتيجنستين Wittgenstein . . ، وكضابط فى الجيش الروسى تولى إعداد القوات الروسية الأهلية . . . ؛ فلما جاءت حملة عام ١٨١٣ خدم كرئيس أركان حرب الكونت وولمودن وتولى ادارة القتال فى جوهرد . . فلما جاءت الهدنة طبع بأمر جينيسينو تقريره عن الحملة . . وطبع فى ليبزيج عام ١٨١٣

ثم عاد كلاوزفيتز إلى الجيش البروسى وحضر ليني وواڤر ووترلو كرئيس أركان حرب الجنرال ثيلمان . . . وهو مركز ظل فيه حتى عام ١٨١٨ .

ونستطيع أن ندرك من هذا أن كلاوزفيتز كان لحقبة طويلة من السنين قريباً بدرجة كبيرة من عمليات مختلفة ؛ وفى طوال الصراع العنيف كان حاضر الذهن سريع البديهة . . . وجاء السلم فلم تكن حياة كلاوزفيتز العسكرية أكثر من حياة مراقب . . . ؛ ففى الأمد بين عام ١٨١٨ وعام ١٨٣٠ كان مديراً للأكاديمية العسكرية فى برلين وهو عمل كله ادارى بعد به عن تدريب الجيش البروسى العمل الذى كان تواقاً له . وكان القليلون من خاصته هم وحدهم الذين يعرفون العمل العسكرى العظيم الذى شغل به كلاوزفيتز آلا وهو التآليف ليسجل على الورق التجاربه

والدراسات والاختبارات للعصر الذى عاش فيه .. والعصور التى سبقته . ولكنه لم يحرر هذا فى غرفة مكتبه بل كتبه على منضدة صغيرة فى ركن غرفة زوجته التى كان يستلهم منها الوحى والتشجيع !!!

كان أهم مايشغله هو كتابه (عن الحرب) . ، وبينا هو فى غمرة تحرير كتابه عين رئيساً لمفتشى المدفعية فى براسلاو .. كانت قد مرت به عشرة أعوام طوال يحمل رتبة الميجر جنرال .. وكانت كفايته وأقدمية رتبته تؤهلانه لمناصب أكبر .. وفجأة عين رئيساً لأركان حرب الجنرال جينيسينو الذى أرسل إلى بوزن عام ١٨٣٠ إبان الثورة البولندية .. وكان سرور كلاويزفيتز عظيماً لفكاكه من أعماله الإدارية وعودته إلى الميدان. ولكن وفاة صديقه جينيسينو فجأة سببت له التعاسة فعـــاد إلى برلين عام ١٨٣١ ثم انتقل إلى بريسلاو يفنيه الإعياء ، وتقتله الكوليرا التي أصيب بها إبان إقامته فى بوزن ..

وفى السادس عشر من نوفمبر عام ١٨٣١ مات « مزيحاً عن صدره العبء الثقيل .. الذى يسمونه الحياة »

* * *

وطبعت مؤلفات كلاويزفيتز بواسطة زوجته ونفر من أصدقائه المقربين فى مجلدات عشرة وسمت بعنوان .

Hinter lassene Werke uber Krieg und Kriegfunring

ثم طبعة أخرى فى عام ١٨٧٤ بعنوان . Clawsewitz's Gena-mmite werke ؛ وتحتوى المجلدات الثلاثة الأولى على كتابه الأساسى (فى الحرب) Vom Krieg ؛ وهو كتاب يقول نقاده عنه «وماذا أوجد

فيه ؟؟ !! » ، ولا إجابة على هذا إلا أن كلاوزفيتز قد أوجد به الاستراتيجية الحديثة التى سيطرت على العقلية البروسية وأدت إلى انتصار بروسيا فى حربى عام ١٨٦٦ و١٨٧٠ على الاستراتيجيين المتحفظين أمثال بازين وكريسمانيك Crisámnic ، وكانت فلسفته فى فن الحرب القاعدة الأساسية لكل الدراسات الجدية لفن الحرب لافى بروسيا وحدها بل فى كل العالم .. وإن كانت طبعته الفرنسية قد صدرت عام ١٨٤٩ / ١٨٥٢ وطبعته الإنجليزية أخرجت للناس عام ١٨٧٣ ..

فاذا تركنا جانباً المجلدات الثلاثة الأولى فإننا نلق باقى المجلدات العشرة خاصة كلها بالتاريخ الحربى ..

المجلد الرابع	الحملة الإيطالية ١٧٩٦ — ١٧٩٧
المجلدان الخامس والسابع	« « السويسرية ١٧٩٩
المجلد السابع	عن حرب ١٨١٢ / ١٨١٣ حتى الهدنة وحرب عام ١٨١٤
« الثامن	ووترلو
المجلدان التاسع والعاشر	عن عمليات جوستاف أدولف — تورين لوكسمبورج — جون سوبيسكى — فردريك الأكبر ثم عمليات برنزويك والرين .

وبقى جزء كبير غير مطبوع عن حملة عام ١٨٠٦ ... ولكن هذا الجزء قدمه هو بفنر فى كتابه عن تاريخ هذه الحرب ثم طبعته كلية أركان الحرب الألمانية عام ١٨٨١ وترجم إلى الفرنسية عام ١٩٠٣ .

وحتى رسائله الخاصة إلى زوجته وهى رسائل توضح تفكيره المثالى وفلسفته فى الحياة .. وأثر هذه الزوجة فى تكوينه فقد طبعت بالألمانية

عام ١٨٧٦ بعنوان Zeitschrift fur preussische Landeskunda . ولكنها مع الإسم لا ترجمه لها بالانجليزية ...

ويحمل اسم كلاوزفيتز الآلاى ٣٨ لمدفعية الميدان فى الجيش البروسى.

* * *

وقد لا يجوز أن تنتهى من حديث « كلاوزفيتز الرجل » دون أن نقف قليلاً متمهلين لنفكر . هل كان من الممكن أن ينجح كلاوزفيتز كقائد فى الميدان ؟ ! ! في الواقع أن الناس يتحفظون كثيراً فى تقديرهم للكتاب العسكريين الأفذاذ الذين ينشأون فى صفوف القوات العاملة ثم ينصرفون إلى التأليف والتحرير : وهم لهذا وإن كانوا لا يشكون فى كفايتهم العلمية يشكون فى قدرتهم العملية . ولكن الواقع أن كلاوزفيتز كان أهلا للنجاح فان عبقريته ونبوغه ثم هدوءه وسرعة خاطرة وصائب تقديره كانت كلها كفيلة بنجاحه فى القيادة بدرجة نجاحه في عملة بهيئة أركان الحرب العاملة ... ومن جهة أخرى فان نشاطه غير المحدود وشعوره بالواقع كانا كفيلين بجعله صالحاً للانتقال بأفكاره العسكرية إلى مرحلة التنفيذ العملى بنجاح يعادل نجاحه فى صياغتها ...

ولكن كلاوزفيتز لم يعين للقيادة ... فبقيت كفاية العملية كغيرة من رجال الاستراتيجية عرضة للجدل والنقاش ...

— ٤ —

العصر الذى عاش فيه

ولو ترك كلاوزفيتز أن يتخير العصر الذى يجىء فيه لما تخير غير ما قدرته له الحياة لأنه جاء فى عصر الثورة التى قلبت فن الحرب والتى جاء بها نابليون ..، وما كان لغير هذه الفترة أنه تصلح لأن تقوده إلى الدرب الذى يسير فيه ليصل إلى لب الأمر لتفهم فن الحرب على حقيقة أوضاعه ..، والعصر الذى جمع بين الثورة الفرنسية ونابليون كان عصراً بدا فيه أن الحرب صورة عنيفة اضطرب لها التنظيمان الاجتماعى والإدارى لقارة أوروبا ، ولم تكن حروب هذا العصر بسبب مطالب اقليمية أو أغراض محدودة بل كانت تتصل وثيقاً بكيان الأمم ..، ثم هى وإن كانت كحروب القرن السادس عشر نفسها قد استخدمت مبادىء وفلسفات تتعارض وأسس الحياة الطبيعية إلا أنها كانت أبعد منها مدى فى تعقدها بالتطورات فى البناء السياسى والاجتماعى للقارة ثم فى التأثير على القوى المعنوية والوسائل المادية للحرب ...

ولكى ندرك مدى التطور الذى جاءت به الثورة الجديدة فى فن الحرب يجب أن ندرك بأن جيوش العصور التى سبقت ذلك العصر كانت

تتكون من جنود محترفين يخدمون لآجال طويلة يتقاضون أجرهم عاجلاً ولهذا كانت هذه الجيوش محدودة العدد مدربة أحسن تدريب .. وكان كل فرد فيها مثله مثل المال الذى تدخره الدولة للحاجة الملحة يجب أن يستخدم بحيطة وحذر ؛ ولكن لما كان هؤلاء الجنود أصلا من الأجانب لم يكن من السهل أن يستجيبوا للفضائل العسكرية وإلى الضبط والربط الجيد إلا بالعنف والرقابة ، ولهذا كان هؤلاء يدربون على السير والقتال فى جموع تحت رقابة ضباطهم دائماً . . ولم يكن القادة ليرسلوا جماعات أستطلاع ولا متصيدين فان خطر فرار الجنود أكبر من خطر أسلحة ونيران العدو ... وكانت الجيوش تستند إلى مخازن التموين الثابتة . . . ولهذا لم يكن من الممكن أن تتوفر عملية المطاردة المؤثرة فان القائد كان بالكاد يسمح لجنوده بالأنفصال عن قاعد تموينهم لسير يزيد عن يومين أو ثلاثة ما لم يجد أن خط مواصلات خصمه غرضاً يمكن ادراكه ولعبت القلاع التى تكون فيها مخازن تموين آمنة دوراً هاماً ولهذا كانت عمليات الحصار أكثر من المعارك العادية وكانت الجيوش تتواجد عادة فى مواقع محصنة وتبقى بلا حركة لأمد طويل ... فإذا أوجدنا فى دراستنا للتاريخ الحربى أية صورة تباين هذا يجب أن نعتبر الأمر شاذاً وأن نرجع بأسباب هذا إلى الموهبة الشخصية للقائد ...

ثم كان التطور ...

صورة جديدة فى التنظيم ... وترتيبات جديدة استراتيجية وتكتيكية بفكرة زيادة خفة الحركة إلا أن هذا التقدم ارتبط فى وقت ما بعوامل عطلت منه بسبب حالة العصر وظروفه .

وجاءت الثورة الفرنسية ...

وكانت هذه الثورة هي التي فتحت الطريق لهذا كله .. فان جيوش الثورة قد نفضت أيديها من أية تحديدات وراحت تقاتل حيث يمكن أن تجد نفعاً من القتال وتقوم بالهجوم المحتشد دون أي تقدير للخسائر في الرجال .. باعتبار أن الفكرة في هذا النوع من القتال هو دحر العدو وتدمير قواه بأي ثمن ، أما في باقي صور القتال فللفرد قيمته في المعركة بسبب قوة نيران الأسلحة الحديثة ...، وقد وجدت أيضاً نظرية تقسيم الجيش إلى فرق من المشاة والقوات الراكبة ..، وبات الأمداد للقوات على أساس الأخذ من الاهلين في المناطق المغزوة ...

واستطاع نابليون أن ينتفع من هذا كله .. وخرج بتكتيكات جديدة فقد وضع جيشه في الخطوط الداخلية دون أن يفكر قط في مواصلاته .. ولم يفكر قط في تغطية الأراضي أو غزوها واحتلالها ..، كان غرضه الوحيد دائماً هو تدمير القوات المضادة له ... ولهذا يقول كلاوزفيتز أن نابليون لم يخض قط معركة إلا ويكون قد قدر من البداية كل العوامل التي تؤدي لكسبها مع تدبير ما يعقب المعركة لاستغلال النجاح ...

والواقع أن تحركات نابليون وتخطيطه الاستراتيجي على ما يوضحه كلاوزفيتز كانت المفاجأة تلعب فيه دوراً هاماً ، وسواء أكان نابليون يحشد فرقه في تحركات سريعة ويسقط كالبرق على أضعف نقطة في مواجهة العدو ... أو يطوي جناحي عدوه بمجموعة كبيرة من جيشه يضعها مقاطعاً لخطر تقهقر خصمه ... وكلما أمكن كان النصر في ميدان المعركة يؤكد منه عملية مطاردة لا هوادة فيها .

على أن هذه القوة البرقية لم تلبث أن عطل منها ازدياد حجم الجيوش الفرنسية زيادة لم تتمش معها بالزيادة القدرة على إدارة وتوجيه هذه الجيوش.

ولا يعنينا الآن من هذا كله إلا أن كلاوزفيتز قد تأثر طبعياً بهذا كله بدرجة كبيرة.. وانتهى إلى أن الحرب مادامت قد اتجهت اتجاهاً شاملا فان هذا الاندفاع للنهاية يجب أن يستمر فان الحرب قد باتت عملا اجماعياً للأمة كلها .. وقد كان كلاوزفيتز تواقاً إلى أن يكون هذا الدرس .. عن «اجماعية الحرب» أي عن « الحرب الأممية الجامعة » نصب أعين السلطات العسكرية البروسية ...

وشهد كلاوزفيتز وهو بعد غلام حدث .. هذه الصورة العقيمة المحكمة التحديد للحرب .. والتي سادت العقلية العسكرية لقرن ونصف من الزمان قبل العصر الذى عاش فيه .. وهى صورة يمكن أن نرقبها فى جموع حملة البنادق المجهدين بالتدريب المتواصل على أساليب ثابتة للقيام بالمناورة فى خطوط واسعة ممتدة .. أو فى حرب الحصار .. على أن تجيء وراءهم وحدات للامداد والتموين .. دون أى نظم ثابتة منسقة لها .. وكل هذا دون الاشتباك بالعدو فى قتال قريب عنيف.

ولكن لما عاد كلاوزفيتز إلى الوحدة التى بدأ حياة الجندية فى صفوفها وجد أن هذه الصورة الجامدة للحرب قد اختفت تماماً حتى من الصورة التجريبية التى تمثل فيها الحرب فى أرض الطابور للتدريب ..

وجاءت السنوات الثلاث التى عين فيها كلاوزفيتز فى أكاديمية الضباط ببرلين حيث عنى شارنهورست بالمشكلات التى جاء بها التطور فى التنظيم والتسليح .. ثم بالأساليب الفنية الجديدة التى كان يشير بها نجاح نابليون.

المنقطع النظير ، وهو أمر كان يتجدد باستمرار . . ، فكان لهذه العناية التي يبذلها شارنهورست والتعاليم والقواعد التي يضعها .. تأثيرها ولاشك في كلاوزفيتز ..، ثم جاء بعد هذا نابليون نفسه فكان له تأثيره الشخصي في كل الضباط الذين عملوا على مقربة منه .

فإذا قدرنا هذا كله .. بدت لنا حقيقة كيف كانت الظروف نفسها مواتية ، فقد اجتمعت عدة أشياء معاً كان تأثيرها عجيباً في الضابط الشاب الذي كان قد وصل إذ ذاك إلى رتبة « كابتن » ، فقد صحب وجود شارنهورست على مقربة منه تفتق ذهنية فياضة التفكير والبحث لتفهم الضربات الساحقة الجديدة الأساليب التي كان نابليون يوجهها لخصومة في ميادين القتال أولئك الذين كانوا ولاشك من القادة النابهين ولكن سوء جدهم هو وحده الذي جعلهم يواجهون نابليون بأساليب وليدة القرن الذي سبق عصر نابليون ، وقد بدا هذا التأثير واضحاً في مؤلفاته التي ظهرت بعد عشرين عاماً من ذلك الأمد .. إذ زخرت صفحاتها بالكثير من آثار هذه الفترة ، وقد أدرك كلاوزفيتز أكثر مما أدرك أي فرد آخر ، بل أكبر وأعمق مما أدرك أستاذه شارنهورست نفسه أن ثورة جارفة قد حدثت ، وأن هذا لم يكن تغييراً في الوسائل الفنية لإدارة وتغذية وقيادة الجيوش المقاتلة وحسب . ، وأن هذا إنما هو ثورة في الصورة التي حشد فيها نابليون كل أوقية من المجهود الحربي .. وكل رجل في قواته المقاتلة لمواجهة الغرض الحاسم .. هذا الغرض الذي لم يكن إلا التدمير السريع لقوة العدو .. أو لقدرته على المقاومة ..

وقد بات التباين الكبير بين صورة الحرب غير المتناسقة والتى لم تحشد بهزيمة منكرة فى جينا — وبين التعبئة الاستراتيجية الواضحة الغرض التى يقوم بها نابليون .. هو العامل الأكبر تأثيراً فى مسار حياته ثم فى مؤلفاته ...

على أن كلاوزفيتز ليس هو أول من تفهم استراتيجية نابليون .. فقد سبقه إلى هذا جوميني[1] المترجم الأول لفن نابليون .. ثم شارنهورست أيضاً ، ولكن الشيء الذى لايجب أن يغيب عنا هنا .. هو أنه فى الوقت الذى كان فيه شارنهورست وجوميني وغيرهما . . تواقين لأن يوجدوا من فن نابليون الإيضاح الصحيح الذى أوجده فردريك الأكبر كان كلاوزفيتز يعتبر أن ماجاء به نابليون يعتبر ثورة تجديدية غيرت من كل شيء سابق .. حتى مما كان فردريك الأكبر قد أوجده من أصول فى الاستراتيجية ، وكانت هذه الحقيقة كبيرة الأثر فى تطور آرائه الشخصية

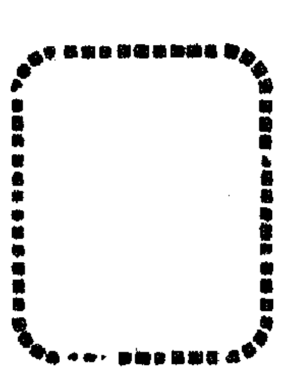
---

(١) البارون انطوان هنرى جوميني (١٧٧٩ — ١٨٦٩) من أصل سويسرى دخل الجيش الفرنسى فى عام ١٨٠٤ كياور الماريشال ني وألحق برياسة نابليون . . فلما لم يحصل على أطماعه بالترقى إلى مرتبة كبيرة فى الجيش ذهب الى روسيا عام ١٨١٣ حيث منح رتبة جنرال وقربة القيصر اسكندر الأول إليه وقد اشتهر جوميني بكتاباته العسكرية وخاصة بكتابه الذى نشره فى عام ١٨٠٥ أى بعد عام واحد من صحبتـه لنابليون وقادته . . ونظريته الأساسية عن الاستراتيجية هى (توجه القوة المحتشدة) إلى النقط الهامة فى مسرح الحرب حيث يمكن أنه تستخدم بمهاجمة الأجزاء المتوزعة من جيش (العدو ..)

لأنه فى غمرة هذا الصراع الفكرى — الذى يدور فى رأسه — بين صورة الحرب التى عرفها القرن الثامن عشر وصورة الحرب النابوليونية وصل كلاوزفيتز إلى تفهم أعمق للأسس الرئيسية للاستراتيجية وأصولها والمشاكل الأساسية التى فى النظرية العسكرية للحرب ، بل أننا نستطيع القول بأن كلاوزفيتز نجح بهذه الوسيلة أكثر مما كان ينجح لو كان قد حاول هذا فقط عن طريق التحليل المبسط لأي من النظريات التى قدمها نابليون دون مقارنة هذه الصورة بأخرى سابقة ، ولا شك أن نجاحه فى هذا كان أبعد مدى مما وصل إليه أى فرد آخر سبقه أو جاء بعده

والواقع أننا نستطيع أن نرقب بوضوح كيف أدى به هذا التباين الكبير بين هاتين الصورتين إلى ايجاد نظريته الشهيرة عن « الحرب المطلقة » ثم كيف نفض يديه فى المراحل الأخيرة من مؤلفه من هذه النظرية الضيقة التصور ليستبدلها بنظرية جديدة فى الحرب ، نظرية ضافية الذيول يمكن أن تشمل — على الاقل فى رأيه هو — كل كل صورة يحتمل أن تجىء الحرب فيها ؟ ويبدو أن العصر وحده هو الذى مكن كلاوزفيتز من إدراك هذا التصور الذى وفر له نتيجة تجاربه الشخصية وتفهمه غير المحدود لهاتين الصورتين المتباينتين من صور الحرب — أن يخرج بنظرياته الفنية ، النظريات التى أجملها فى مؤلفاته ، ولم يكن لأى عصر آخر أن يمكنه من هذا . . . وليس فى

هذا التقدير أى اسراف لأننا لا يمكن أن نجد عصراً آخر قد جمع بين تعليم شخصيتين عسكريتين كبيرتين كفردريك الأكبر ونابليون وما جاء على هامشهما كساكس (١) وغيره .



(١) الماريشال موريس أوف ساكسونى ولد عام ١٦٩٦ وكان ماريشالا فى الجيش الفرنسى عام ١٧٢٠ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، وكان ماريشال فرنسا والقائد الأعلى لجيوشها فى عام ١٧٤٥ أيام لويس الخامس عشر ومات فى نوفمبر ١٧٥٠

— ٥ —

نظريات كلاوزفيتز التعليمية ومظاهرها كأصول ومبادىء فى فن الحرب

وصل كلاوزفيتز إلى أشياء وأشياء نتيجة دراسته لهذا التطور الذى جاء به العصر الذى عاش فيه ..، ثم نقل هذا كله بعد أن تفهمه وهضمه إلى نظريات وتعليم ولو قدرنا الأمر فى حيز فسيح فان الصور غير العادية لنظريات كلاوزفيتز فى فن الحرب يجب النظر اليها فى ضوء الحقائق الثلاث الآتية :—

(١) لم يكن كلاوزفيتز أول كاتب عسكرى وحسب — بل وقد يمكن القول إنه هو الكاتب العسكرى الوحيد الذى — تخطى ببحوثه إلى ما وراء النظرية القديمة عن كيفية إدارة الحرب متجهاً إلى تحليل الحرب نفسها فى صورة شاملة عامة ؛ أو كما قال هو نفسه معبراً عنها بكلمتى (الحرب المطلقة) ... الحرب التي لا تعرف أى تحديدات ولا تخضع لأى عرف ...

(٢) ومن هذا الاطار الذى كونه كلاوزفيتز كان هو الشخص الوحيد الذى تضمنت بحوثه فى تنسيق تام كل نواحى الاستراتيجية

مرتبطة معاً فى جدل مسبب قوى ... ارتبط فيها كل أصل من الأصول وثيقاً بغيره ثم بالمجموعة كلها إلى تجمع بينها . . وكان هذا هو الذى أوضح الفرق بينها وبين الصورة المائعة المفككة التى قدم بهـا چومينى نظرياته فى الاستراتيجية .

(٣) وبالرغم من هذا الجدل المسبب فان النظريات الأساسية لكلاوزفيتز جاءت مرنة متزنة .. ولم تكن جامدة ولا صلبة .

بل وقد يمكن أن نقول غير مسرفين في حسن الظن .. بأن هـذه النظريات نفسها لا تعقيد فيها .. ، ولكننا مع هذا لا ننكر أن الكثير منها يبدو غير مفهوم ... والعلة فى هذا يرجع ولاشك إلى أن كلاوزفيتز قد كتب مؤلفاته كلها تبعاً للصورة التى تزاحمت بها فى ذهنية .. ، كان يكتب كل ما يخطر له .. ويتحدث عن كل ما يجول بخاطره .. ولم يعن العناية كلها بأن ينظم الحديث عن كل موضوع على حدة .. فعلة عدم فهم قراء كلاوزفيتز لكتبه أنهم لا يصلون إلى الأعماق ولا يجدون فى البحث عن كل موضوع .. وعن تعقب الدراسة كلها .. للبحث عما يعنيهم من موضوعات ..

وهذا كله سنعرض له ثانية عند الحديث عن نظريات كلاوزفيتز وتعاليمه فى الحديث عن (عرض كلاوزفيتز لاصول الحرب) ثم فى الحديث عن (تطبيق آراء كلاوزفيتز فى عصرنا الحالى) ، إلا انه قد يكون لزاماً على ان أقول هنا بأن أولى هذه النقط الثلاث قد تكون هى الأبرز فى الأمر كله ... فهى الأصلية فى البحث . . ومع هذا فان كلاوزفيتز لم يشرحها بافاضة فى أي من مؤلفاته .. ولم يقدمها فى نقاش

منظم كما فعل حتى فى بعض تعاليمه الثانوية الأهمية بالنسبة « لنظرية الحرب المطلقة » بل تركها مبعثرة .. مثلها مثل أى من نظرياته الأخرى

* **

والشيء الآخر هو أن كلاوزفيتز قد عارض كل نظريات القرن الثامن عشر . . فالحرب ليست مباراة فنية . . ولا رياضة دولية بل عمل من أعمال العنف ..، وليس فى طبيعة الحرب أى اعتدال أو تبسط ، ولهـــذا يقول كلاوزفيتز فى كتاب الحرب (الكتاب الرابع الفصل ١١) : « إننا لا نرغب فى سماع أسماء القادة المنتصرين دون سفك الدماء ..، فاذا كانت المعارك الدامية مخيفة الصورة .. فمن الضرورى أن نتفهم الحرب جيداً وأن لا نسمح لسيوفنا أن تصدأ فيجيء أشخاص آخرون يحملون السيوف الحادة فيقطعون بها أذرعتنا من أجسامنا »

والغريب أن كلاوزفيتز قد اعتبر الناحية الفنية للحرب فى المرتبة الثانية من الأهمية ... بالنسبة « لفكرة الحرب نفسها » . . . فهى ليست سباق رياضى « نظيف » على قياس مباراة فى كرة القـــدم . . أو كرة المضرب يلعب فيها كلا الخصمين للفن بغض النظر عن النصر أو الهزيمة ..، بل هى قتال .. ولكل من الطرفين أن يفعل كل مايحلو له مستنداً إلى العوامل المادية والمعنوية . . فهو صـــورة إجماعية لقتال الفرد للفرد الأصل الأساسى للحرب .

على أننا مهما حاولنا التبسيط من نظرية كلاوزفيتز عن « الحرب المطلقة » فمن الضرورى أن نذكر بانه لم يفشل فى قط التنبيه إلى الأهمية النظرية التى لهـا . . وكل فرد يجب عليه (أن يعطى أكبر مكان لهذه

الصورة الشاملة للحرب واستخدام هذه الصورة كنقطة عامة للتوجيه ، ولهذا فإن من يرغب فى تعلم شيئاً ما يجب أن يعود نفسه على أن لا يغفل هذا الشيء قط . وأن يعتبره القياس الطبيعى لكل بحوثه وأفكاره حتى يمكنه أن يدرك . . أين يستطيع أن يعمل وأين يجب أن يعمل) « الكتاب الثامن فصل ٢ » .

* * *

وقد بدأ كلاوزفيتز تقديمه المقسم لنظريته فى الحرب المطلقة بعرض قصير للحرب من وجهة عامة .. ثم انصرف إلى التحدث عن نواحيها الفردية كل على حدة مع القاء نظرات عارضة على الأمر كله . . ، ثم يجمع فى النهاية كل هذه الخيوط معاً فى كتابه « خطط الحرب » ولاشك أننا عندما نجمع معاً هذه العناصر الموزعة نستطيع ان نحصل على صورة متسقة .. ثم يمكن على طوال الصفحات التى تحدث فيها كلاوزفيتز عن نظريته أن نرقب العوامل المختلفة التى تؤثر فيها . . . مثل هـــذه العوامل هى . . .

الموقف السياسى الذى أثارته الحرب . .

المقاصد الايجابية أو السلبية لكلا الجانبين المتضادين

نقط القوة أو الضعف التى فى كل من الهجوم أو الدفاع ثم إلى أبعد من هذا . .

عامل الوقت . . هذا العامل الذى يكون حاسماً عندما يستطيع أى من الجانبين المتضادين أن يتملكه وحده وأن ينتفع بالأفضلية الناجمة عن تملكه . .

وإلى ما وراء هذا العرض المنسق نجد أن نظرية « الحرب المطلقة » قد أمدت كلاوزفيتز بالإطار الذى يمكن معه أن يقدر آلياً كل العناصر والمشكلات الفردية للحرب ، وبذلك استطاع الكتاب العسكريون أن يلتقطوا من هذه المجموعة المضطربة للظاهرة الحربية عدة نقط قليلة اختيرت مصادفة من غير قصد ، على أن هذه النقط فى حد ذاتها دلت على أن كل ما بدا لهم أن له أهمية خاصة كان من الضرورى أولاً أن يثبت أو أن يدعم لب الموضوع كله وذلك ليمكن أن تربط نظريات كلاوزفيتز فى الحرب بعضها البعض جملة واحدة . . ، فكلاوزفيتز نفسه يقول « لكى نبحث أى أصل من أصول الحرب يجب أن تبحث الأصول كلها معاً ذلك لأنها كلها متصلة بعضها البعض » .

وإذن فهو نفسه يدرك أن الأصول التى جاد بها يجب أن تدرس مع بعضها . . . إلا أنه بالرغم من هذا ، وإن كان قد درس بعناية الكيان الداخلى « لنظرية الحرب » إلا أنه لم يفحصه ثانية . . بل فى المرة الوحيدة التى عرض فيها كلاوزفيتز لدراسة النواحى الداخلية لمسألة الحرب كشف الستار عن كثير من الأشياء التى تكون الشبكة الداخلية للعلاقات المتصلة التى تربط بين هذه النواحى . . ثم بين الحرب وبين الكثير من العوامل الاجتماعية . .

وكان نصيب الكثير من هذه النواحى التى كشف عنها كلاوزفيتز أن تركت دون عناية ... فلم يتعقبها بالدرس للوصول إلى أبعد مما وصل إليه كلاوزفيتز غير نفر قليل من العسكريين . . بل وحتى أن الكثير مما قدر كلاوزفيتز نفسه أهميته واعتبره أهم من غيره لم يستوعب ولم

يدرس بافاضة قط ... وقد يمكن أن نخرج بتصوير جيد لنظرياته عن الحرب من الدراسة الجدلية لمختلف صورها (الحرب) الشيء الذي يمكن أن نضعه موضع المقارنة بإزاء الجهد الذي بذله « چوميني » من جانبه لدراسة الحرب . .

وقد حاول الأخير . . « چوميني » في الفصل الأول من كتابه (مجمل فن الحرب) Precis de l'art de la Guerre أن يضع تقسيما للحرب كمحاولة للتحدث عنه شيئاً لا جملة واحدة ، وقد قدمها في تسع صور مختلفة هي : —

الحرب الهجومية لاستعادة بعض حقوق الدولة . .

الحرب الدفاعية من الناحية السياسية ... ولكنها هجومية من الناحية العسكرية . .

الحرب للغزو بقصد الفتح والاستعمار أو لأسباب أخرى . .

الحروب ... مع ... أو بدون ... حلفاء ...

الحروب بقصد التدخل في أحوال دول أخرى ...

الحروب للمصالح الذاتية ...

الحروب القومية ...

الحروب للأفكار والمعتقدات ...

الحروب الدينية والأهلية ...

ونظرة بسيطة إلى هذه المجموعة المبعثرة تبدي أن (چوميني) لم يقدم شيئاً أكثر من احصاء لعدة أنواع ولكنها في جملتها لا تغطي الأمر كله .

بل أن ما قدمه چوميني لا يمكن أن يكون نتيجة تحليل معنى به ، والشيء الناقص في تقسيم چوميني على التخصيص هو أنه لم يبذل أية محاولة لإيضاح طبيعة هذا التقسيم ، وهل يعني أن هـــذا الخلاف هو فقط من الناحية السياسية للحروب ، أو أن هذا يؤثر في الإدارة العسكرية للحرب أيضاً ، فإذا كان الأمر الأخير نفسه يتأثر فكيف يكون هـذا ؟!! بل وإلى أي مدى ؟؟!

وفي الحديث الوحيد الذي تعرض فيه چوميني لهذا الأمر يبدأ حديثه بتأكيد الرجوع بهذه الاختلافات إلى العوامل المعنوية والسياسية للحرب؛ ثم يتجه إلى القول بأنها حتى لو كانت تؤثر في الإدارة العسكرية للحرب فإن أصول الحرب ثابتة أي أنهـــا أساسياً لا تتأثر بأي تغييرات أو اختلافات في العوامل السياسية والمعنوية ..

وعلى نقيض هذه الدراسة المفككة المائعة لصور السياسية للحرب والتي ترك أمر تأثيرها في الإدارة العسكرية قائماً غير واضح فإن كلاوزفيتز قد وضع دراسته على أساس دقيق واضح في الإدارة العسكرية للحرب بقوله في الباب الرابع من كتابه الثامن «خطط الحرب» : (فإذا كنت في قوة كافية فإن الغرض الطبيعي من الحرب يكون التدمير التام لقوة العدو وقدرته على المقاومة فإذا كانت تنقصك — من ناحية أخرى — أفضلية معنوية أو طبيعة لازمة لتصل بك إلى هذا الغرض الكبير فإنك ترتد إلى غرض آخر أكثر تحديداً ؛ هذا الغرض الذي يمكن أن يكون إما الهجوم لاحتلال جزء من أرض العدو وإما أن يكون حرباً خالصة للدفاع ...)

ونلقي هنا أن التفريق بين الحروب إنما يقوم على أساس عوامل تبادلية

فى النطاق الحربى نفسه : فاما أن تكون الأفضلية الضرورية فى جانبك وإما أن لا تكون ، وعلى أى الحالين فان طريقك واضح لك ، وإلى أبعد من هذا فانه على نقيض الإحصاء الذى قدمه چوميني فان هذين الأمرين المتبادلين إنما يغطيان فيما بينهما كل شىء ..، وعلى نفس الأسلوب فان القرار الثانوى فى حالة حرب ذات غرض محدد ..، سواء أكان للقيام بهجوم محدود للدفاع فان كلاويزفيتز يضعه بوضوح على أساس : وضوح الغرض ..، تأثير عامل الوقت ..، وعلى المقاصد السياسية السلبية أو الايجابية لكلا الجانبين المتضادين ..

وبالاضافة إلى هذا فان التباين فى الحروب تبعاً لاختلاف المقاصد العسكرية لها .. إنما يسبب بدوره تبايناً واختلافاً فى الإدارة الفعلية للحرب نفسها ، وهذه النظرية قد تكون أهم مرحلة فى تقسيم كلاويزفيتز للحرب ، بينا نرى ان چوميني لا يذكر شيئاً من هذا التباين ذاكراً فقط « أن أصول فن الحرب لا تتغير » ، ويحاول كلاويزفيتز أن يصور أن هذه التبسيطات للغرض ليست موجهة إلى الصورة العامة للحرب ولا للاتجاه المعطى لفكرة الحرب ؛ بل إنها تؤثر فى الاسلوب الذى يتبع وفى صورة العمليات نفسها ؛ ولهذا فانها توضع موضع التقدير من الناحية النظرية .

ونظرية كلاويزفيتز للحرب المطلقة ــ برغم الصورة العنيفة الأسباب المنطقية فيها ــ ليست جامدة كما أنها ليست مطلقة القيادة تماماً ؛ وكل قصده هو أن يكشف أمام قرائه الستار عن التكوين الداخلى للحرب ، وأن يعرض تعقدها . . وأن يجعلهم على بينة من مواردها

الغامضة وأحابيلها المموهة الخادعة ذلك لكى يألفوا صورها العامة التى قد يواجهونها فى ميدان القتال .

وفى رغبة كلاويزفيتز أن يوضح فى كل مناسبة كلا جانبى الأمر المنافع والمضار ، فان كلاويزفيتز إنما يقف دائماً فى الجانب المضاد للافضلية العددية فى جانب واحد ، وفى العمل على الخطوط الخارجية ضد الخطوط الداخلية ، والدفاع الذى أساء تقديمه كشىء له وجود ، وفى سياق تحدث كلاويز فيتز عن هذه الأشياء فهو يتحدث مؤكداً أفضلية عكسها (١) ، موازناً بين المزايا والفوائد التى للهجوم وتلك التى للدفاع ، وبين تلك التى للعمل على الخطوط الخارجية وتلك التى للخطوط الداخلية .

وهذا العرض المقارن لكل نواحى الأمر هو الذى أوجد هذه المرونة العجيبة التى فى نظريته ، وهو بدوره الذى جعلها من ناحية ما كبيرة النفع وإن كانت من الناحية الأخرى معقدة ومشوشة .

ووجه التعقد فيها أنها لا تعطى حلاً معداً أو اجابة واضحة مشروحة بل تقدم الآلات أى الوسائل فقط ، تاركة للقراء أن ينتفعوا بذكائهم فى تطبيق ما أمكنهم تفهمه من هذه المسألة المعقدة ، وهذه طريقة نافعة مفيدة لأن الوسائل التى قدمها كلاويز فيتز كثيرة خافية ، كما أنها مرنة جداً لدرجة أنه يمكن تطبيقها عملياً فى كل حال يمكن أن يعرض لها الفرد .

---

(١) راجع الفصل الذى تحدثنا فيه عن حكم نابليون وتعاليمه التى أثرت فى كلاويزفيتز .

-٦-

السياسة والحرب

ولم يغفل كلاويزفيتز عما أدركه أولئك الذين سبقوه بقرون .. وقرون من الصلة بين السياسة والحرب .. أوليست الحرب هى استمرار المواقف السياسية مشتبكة بغيرها من الوسائل ؟ ... فى رأى كلاويزفيتز نفسه . . ، ونحن إذ نقول « المشتبكة بغيرها من الوسائل » ليجب أن نذكر فى ذات الوقت أن المناقشات السياسية لا تتوقف عندما تبدأ الحرب بل تتغير إلى شيء مختلف الصورة .. ولكنه مع هذا يعتبر استمراراً للمناقشات السياسية ..، فهل تنتهى العلاقات بين الافراد والحكومات عندما يبطل تبادل المذكرات السياسية ؟ بالطبع لا.. إذن كيف يمكن أن نفصل بين السياسة والحرب فى الحديث عن أيهما .

فالصلة قائمة لا سبيل إلي إنكارها .. أو الإغضاء عنها ، والاستراتيجية العامة للدولة ما توجب أن لا تتعارض الاتجاهات والمقاصد السياسية لهذه الدولة مع الصورة الخاصة للوسائل العسكرية التى تستخدمها ..، وكل هذا الحديث القديم . . وقد قدمه كلاويزفيتز بقوله « إن المعارك والحروب والمناقشات السياسية إنما تكون مجموعة واحدة يسيطر فيها الكل على الجزء . . وتسيطر فيها النهاية على الوسيلة . . » فاذا قلنا

لكلاوزفيتز وما هو الغرض النهائى .. فى ضوء الصورة الواضحة للحرب الشاملة كما تقدمها فى تعاليمك ؟ قال : « ان المقصد العسكرى لسحق قوة العدو يحل محل الغرض النهائى ألا وهو القصد السياسى . »

* * *

والواقع أن الكثير من تعاليم كلاوزفيتز ونظرياته عن الحرب المطلقة والمعركة الأساسية ، وصلة القائد وجنوده بالحكومة والأمة .. وثيقة الصلة بالارتباط بين السياسة والحرب .

على أننا قبل أن نعرض لوجهة نظر كلاوزفيتز ، فى هذا الشأن يجب أن نعرض ببعض كلمات «المعركة الأساسية» أهم ما تحدث عنه كلاوزفيتز، ونجد مثلاً حسناً لهذا فى تعريفه (للتكتيك والاستراتيجية) فهو يقول (إن التكتيك هو نظرية استخدام القوات العسكرية فى القتال بينما أن الاستراتيجية هى نظرية استخدام المعارك لاغراض الحرب » وقد كون صاحبنا لنفسه هذا التعريف فى عام ١٨٠٥ لمعارضة الفكرة التى ميزت فقط بين إدارة التحركات فى داخل مدى الرؤيا بالنسبة للعدو وتلك التى خارج هذا المدى ، ومهما كانت القيمة الفنية لهذا التعريف فانه انما يتصل باصداره على العامل القوى فى الصلة بين الوسائل والغايات وكما يقول كلاويز فيتز فى كتابه « فى الحرب » : (حيثما يكون الجنود يجب أن تكون فكرة القتال معدة دائماً) ، وكل نشاط فى الحرب يسير بالضرورة إلى القتال إما مباشرة أو غير مباشرة (فالجندى يجند ويطعم وينقد أجره ثم يدرب ويقاد .. وكل هذا ليقاتل فى الوقت والمكان المناسبين) .

وهذه العلاقة تتكرر .. فالمعارك ليست فى حد ذاتها أكثر من وسيلة مثلها فى هذا مثل الجنود أنفسهم .. فكما يستخدم الجنود للقتال نستخدم المعارك لغرض الحرب .. هذا الغرض الذى هو تدمير قوى العدو وقدرته على القتال .

وهنا أيضاً لا ينظر كلاوزفيتز إلى أن عدداً قليلاً جداً من الحروب التى سجلها التاريخ هى وحدها التى تتوفر فيها ما رآه كلاوزفيتز عن الوسائل والغايات ، والحرب الحقيقية من النادر أن تتم فى معركة واحدة بل أن كثيراً من الحروب لم يكن من الممكن أن يكون فيها قتال قط .. ولكى نصل إلى حل لهذا التضاد بين الحرب الحقيقية والحرب المعنوية أو على ما اعتقد أنه أصلح أن نسجلها «بالحرب السلبية» يتفضل كلاوزفيتز وحده طائعاً بإيضاح نظريته من جديد فيقول فى الكتاب الأول فصل ٢ « إن الوصول إلى قرار حاسم باستخدام السلاح مثله فى كل العمليات الصغرى والكبرى على السواء مثل التسوية النقدية العاجلة فى السوق التجارية)

والعلاقة بين الوسيلة والغاية هى أيضاً قاعدة التعبير السياسى لكلاوزفيتز فى الحرب ، فالمعارك والحروب والمناقشات السياسية تكون معاً صورة شاملة يسيطر فيها الكل على مختلف الأجزاء .. وبالمثل تسيطر الغاية على الوسيلة ، وقد يبدو فى بعض الأحيان أن المعركة تبعاً لصورتها الحاسمة تتحكم فى الغرض من الحرب . . . بل أن كلاوزفيتز يعود فيشير إلى أن الغرض العسكرى لتدمير قوات العدو يحل محل الغرض النهائى أى محل القصد السياسى .. ولعله على أساس هذا الحديث زعم بعض الكتاب

العسكريين على أن كلاويز ڤيتز إنما يحرص على إيضاح الأفضلية التى للكفاءة الشخصية للعسكرية.. وهذا إلى حد ما له حقيقته لأن كلاويزڤيتز يصر على أن القائد يجب أن يكون طليقاً من الناحية السياسية .. بل وأن يكون فى الموقف الذى يمكنه من التأثير فيها . . . فهو يقول إن الغاية السياسية يجب أن تعد لتتمشى مع طبيعة الوسائل العسكرية ولهذا فقد تتغير تماماً تبعاً لهذه الضرورة .. فالاستراتيجية من وجهة عامة — والقائد العام على الأخص — قد تتطلب أن الاتجاهات والمقاصد السياسية يجب أن لا تتعارض والوسائل العسكرية ، وليس هذا المطلب بالأمر السهل الميسور.

على أنه يجب أن نضيف هنا أن كل آراء كلاويزڤيتز تشير إلى النظام المضاد للأشياء فالحرب هى فقط جزء من الإجماع الإجتماعى ، وهى تختلف عن الكل تبعاً لوسائلها الخاصـــة ، ومهما كانت الاحتياجات العسكرية قد تعمل فى اتجاه مضاد ففى بعض الأحوال قد تعتبر الأغراض السياسـية مبسطة لهذه المقاصد .

فإذا قلنا إن المقاصد السياسـية هى الغاية وإن الحرب هى الوسيلة كان طبيعياً أنه لا يمكن أن تقدر قيمة الوسائل إلا تبعاً لتقدير الغاية والنهاية والحرب ليست شيئاً ما إلا استكمال سياسة الدولة بوسائل مختلفة .

على أن كلاويزفيتز يعود فيشير إلى هـذا قائلاً فى الفصل ٢٣ من الكتاب الأول (ليست الحرب فقط عملاً من أعمال السياسة بل وسيلة سياسية حقيقية فهى تتمة للمفاوضات السياسية مكملة لها فقط بوسائل مختلفة) على أن كلاويزفيتز يعود فى مكان آخر من كتابه (فى الحرب) فيقول فى الفصل ٦ « ب » الكتاب الثامن شيئاً هو هو نفس ما قاله فى الفصل

٢٣ من الكتاب الأول ولكنه هنا يقول: « تكملة للمفاوضات السياسية ممتزجة !!! بوسائل مختلفة ؛ ونقول ممتزجة بوسائل أخرى لكى توضح فى ذات الوقت أن هذه المفاوضات السياسية لم تتوقف بالحرب نفسها ولم تتغير إلى شىء مختلف تماماً بل تستمر مهما كانت الوسائل فى هذا .... أليست الحرب وسيلة أخرى للتعبير عن أفكار السياسة فقط فى لغة تباين لغة المذكرات السياسية وأسلوب غير أسلوبها ، إن الحرب لها القواعد اللغوية التى للسياسة ولكن ليس لها منطقها »

والذى يجب أن نلاحظه هو أن كلاويزفيتز لم يتحدث عن الحرب كامتداد للسياسة كما قال بيروسال فى كتابه « العشرين عاماً التى تلت فرسايل » فى وصفه للصورة العسكرية السياسية المقتطعة من تعاليم كلاويزفيتز ولكن الذى يجب أن نذكره هنا مع الأسف هو أن كلاويزفيتز وإن كان قد فكر فى كيف يمكن أن يكسب الحرب فإنه لم يقدر إطلاقاً كيف يكسب السلم (١) فهو عندما تحدث عن السياسة كان يفكر فى الحرب ... فهو يرى أن سياسة الدولة هى الرحم الذى ينمو فيه جنين الحرب والسياسة بعد ذلك هى التى تضع الخطوط الرئيسية التى يتحرك مسار الحرب تبعاً لها ، وهذا هو التنظيم الصحيح للأشياء فقط على شريطة أن السياسة لا تتطلب أى شىء يتعارض مع طبيعة الحرب ... فالحقيقة التى لا شك فيها والتى يجب أن نضعها دائماً موضع التقدير هى أنه من غير المنطق أن يقال بأن القادة يمكن أن يضعوا التخطيط العام لأية عملية حربية وهم يجهلون كل تفاصيل المسائل السياسية الخاصة بموضوع الحرب ... سببها ... مقاصدها وأغراضها !!!

---

(١) راجع شبح نابليون لليدل هارت صفحة ١٢١

-٧-

الاستراتيجية وتطبيقها

فى عرض كلاوزفيتز لأصول الحرب

تعنى الاستراتيجية الجمع بين الإشتباكات الفردية للحصول على الغرض من الحملة أو من الحرب . . ، وإذا كنا نعرف كيف نقاتل وكيف نكسب القتال فلسنا فى حاجة إلا إلى قليل من العلم بعد هذا ، ذلك لأنه من السهل أن تجمع إليه النتائج المستقبلة ، وليس هذا إلا مسألة حكم بالتجربة ولا يتوقف على علم خاص كما هو الحال فى إدارة المعركة وتوجيهها ، والأصول القليلة التى تجىء فى هذا والتى تتوقف أوليا على الأحوال فى الولايات والجيوش التى لها صلة بالحرب يمكن أن تلخص فى إيجاز أجزاءها الضرورية فى رأى كلاويزفيتز بالآتي : —

١ — الأصول العامة :

١ — لفن القتال أغراض رئيسية ثلاثة :

ا — قهر وتدمير قوات العدو المسلحة

ب — الاستيلاء على المواد وغيرها من موارد القوة

حـ — اكتساب الرأى العام

٢ — ولإدراك الغرض الأول يجب دائماً أن نوجه عملياتنا الرئيسية ضد القوة الأساسية لجيش العدو أو على الأقل ضد جزء مهم من قواته لأنه بعد هزيمته يمكن أن نتعقب بنجاح الغرضين الآخرين .

٣ — ولكي نمسك بالقوى المادية للعدو يجب أن نوجه عملياتنا ضد الأماكن التي تحشد فيها أغلب هذه الموارد كالمدن الرئيسية ، المستودعات والقلاع الكبيرة !!! وفي الطريق إلى هذه الأغراض يجب أن نتغلب على قوة العدو الأساسية أو على الأقل على جزء هام منها ..

٤ — ويكسب الرأي العام عن طريق الانتصارات العظيمة واحتلال عاصمة العدو ..

٥ — وأول وأهم قاعدة يجب ملاحظتها لإدراك هذه الأغراض هو استخدام قواتنا إلى غاية ما يمكن ، فان أي تبسيط أو تقليل في درجة نشاطنا يوقفنا دون إدراكنا غرضنا بقليل ، وحتى مع وجود كل شيء في جانبنا يجب أن لا نكون حمقى فلا نستخدم أقصى جهد لنؤكد من هذه النتيجة ، وحتى لو فرضنا أن الأمة تقاسي كثيراً في سبيل هذا فلن تنشأ عنه مضار دائمة ذلك لأنه كلما كان الجهد كبيراً كلما تبدد بسرعة ما تقاسيه الأمة ...

وللتأثير المعنوي الذي تخلقه هذه العمليات أهميته ... فانها تجعل كل فرد واثقاً من النجاح الذي هو خير وسيلة للانعاش الفجائي لقوى الأمة المعنوية .

٦ — والقاعدة الثانية هي حشد قوتنا إلى غاية ما يمكن ضد القطاع

الذى ستوجه إليه ضرباتنا الأساسية مع التغافل عن أى مضار فى أى جهة أخرى وبذلك تزداد فرص نجاحنا في النقطة الحاسمة ..

٧ — والقاعدة الثالثة هى أن لا نفقد أى وقت ، وما لم يبد على التحقيق أن فائدة كبرى يمكن أن تجنى من التردد فمن الضرورى أن نبدأ العمل لأول وهلة ، فبهذه السرعة يمكن اكتساب الرأى العام سريعاً كما يمكن أن تقتل فى مهدها كل تقديرات العدو وتدابيره ... والمفاجأة أهم عامل للنصر ... وترجع اليها شهرة نابليون وفردريك الثانى وجوستاف أدولف وقيصر وهانيبال والاسكندر ...

٨ — والقاعدة الرابعة والأخيرة هى أن نستثمر نجاحنا بأكبر درجة من النشاط ، ويجب أن نلاحظ بأن مطاردة العدو المهزوم تمكننا من جني ثمار النصر ..

وتصلح أولى هذه القواعد كقاعدة للثلاث الآخريات فاذا اتبعنا هذه القاعدة تماماً فاننا نستطيع أن نكون جريئين ما أمكن فى الثلاث الأخريات دون أن نخاطر بها .. ذلك لأنها تمدنا بوسيلة استمرار إيجاد وإعداد قوات جديدة فى مؤخرتنا تمكن من علاج أى سوء جد أو مصيبة ..

وهنا يكمن الحذر ... العقل الذى يوجهنا إلى أن نخطو كل خطوة جديدة فى تمهل وتردد ...

١٠ — ولا تستطيع الدول الصغرى القيام بالغزو .. ولكن لها فى الحرب الدفاعية قيمة لا يمكن أن تنكر ، ولهذا فانى اؤمن أننا إذا لم نوفر أى جهد وقمنا فى المرة بعد الأخرى بحشد جديد من الجنود مستخدمين كل الوسائل الممكنة للاستعداد مع إبقاء قواتنا المحتشدة فى

النقطة الأساسية تجاه الهدف العظيم الذى نرمى اليه فاننا بذلك نعمل كل ما يمكن للتوجيه الاستراتيجى للحرب ...

١١ — وفى إتباعنا لهذه الأصول يتوقف القليل على الصورة التى تنفذ فيها العمليات ، وسأحاول هنا أن أوضح فى بعض كلمات أهم نواحى هذه المسألة على ما أوضحها كلاويزڤيتز ...

ففى القتال نحاول دائما أن نطوى جزء قوات العدو الذى نوجه ضده هجومنا الأساسى.. ونحن نفعل هذا جزئياً بسبب أن قواتنا تؤثر بدرجة أكبر فى الهجوم المحتشد عنها فى الهجوم «المتوازى» بالمواجهة ، وإلى أبعد من هذا فاننا نستطيع أن نقطع العدو عن خط تقهقرة .

ولكن إذا استخدمنا هذا لكل مسرح الحرب وبالتبعية لخطوط مواصلات العدو فان القوات والجيوش الفردية التى ستطوى العدو ستكون فى كل الأحوال بعيدة جداً عن بعضها البعض بدرجة لا تمكنها من الاشتراك فى إشتباك واحد . . ، وسيجد العدو نفسه فى مركز متوسط وأن فى استطاعته أن يتحول الى هذه الفيالق الواحد إثر الآخر ويهزمها كلها جيش واحد ، وحملات فردريك الثانى تقدم لنا المثل الجيد لهذا سيما تلك التى فى عامى ١٧٥٧و١٧٥٨ (١)

---

(١) فى حرب السبع سنوات وجد فردريك الأكبر ملك بروسيا نفسه محاطا بأعدائه فللجنوب النمسا وساكسونى وفرنسا للغرب والسويد للشمال والروسيا للشرق ، وفى غزو فردريك الأكبر لبوهيميا عام ١٧٥٧ أوقفه النمسويون فى كولين واضطر الى التقهقر لداخل بلاده ومن هناك تقدم فى سرعة البرق الى وسط المانيا ليهزم الفرنسيين فى (روزباخ) ثم ارتد الى سيليزيا حيث هزم النمسويون فى (لوثين Lauthen) وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ هزم الروس فى (زورندورف) ، وبالرغم من هذا فان الأفضلية العددية التى كانت فى جانب خصومه أرغمته على أن يقنع باستراتيجية دفاعية بينما بقيت تكتيكاته هجومية .

ويبقى الاشتباك الفردى لهذا هو الحادث الحاسم الرئيسى وبالتبعية إذا قمنا بهجوم محتشد دون أن تكون الأفضلية الحاسمة فى جانبنا فسنفقد كل الفوائد التى نتوقعها من هجومنا التطويقي للعدو ، ذلك لأن الهجوم على خطوط المواصلات تأثيره بطىء بينما يجىء النصر فى ميدان المعركة بثماره مباشرة . . .

ولهذا فان الجانب الذى يحيط به أعداؤه يكون موقفه ـ من الناحية الاستراتيجية ـ أفضل إذا كان أولئك الذين يحيطون به فى قوة مماثلة لقواته أو أضعف منها . .

وقد كان الكولونيل چوميني محقاً في هذا ... ولوكان فون بلو . .(١) قد قام بالعكس فى صورة تماثل هذه الحقيقة فإنه قد فعل هذا لأنه قدر أهمية كبرى لارباك تموين العدو وحرمانه تماماً من كل وسائل النجاح فى المعركة . . .

---

(١) بارون ديتريش هنريش فون بلو (١٧٥٧ ـ ١٨٠٧) اشتهر فى حياته بأكثر من عمل كان صحفياً ومبشراً ورجل أعمال ثم جندياً فلما تقاعد عاش هادئاً يكتب غزير عدة كتب فى النظريات العسكرية والاستراتيجية أهمها (روح الأسلوب الجديد للحرب) الذى طبع عام ١٧٩٨ ، وبالرغم من أن حياته القلقة لم تكن لتمكنه من عناية البحث إلا أن عقله المستقل الناضج مكن من نجاحه فى كتابه وتبعاً لنظريات فون بلو فان الحرب لا تقرر تبعاً للانتصارات العسكرية التى يمكن الحصول عليها فى ميدان المعركة بل بالمناورات الاستراتيجية ضد خطوط عمليات العدو (كوسائل تموينه مثلا) والتطويق الاستراتيجى يؤثر بدرجة كبيرة فى قطع خط تقهقر العدو وإن كان هذا نفسه يمكن الحصول اليه بالتطويق التكتيكى ، ولهذا فان التحرك الاستراتيجى معقول فقط إذا كانت الأفضلية المعنوية والطبيعية فى جانبنا فنكون فى قوة كافية فى النقطة الرئيسية لنواجه القولات المنفصلة ونهزمها ...

ولم يقم نابليون اطلاقاً بتطويق استراتيجى بالرغم من أنه كان دائما يعمل والافضلية المعنوية والطبعية فى جانبه .

(هذا الحديث صحيح جزئياً فى معارك جينا واولم ومارينجو وواجرام)

١٢ — ومبدأ حشد قواتنا ــ الى غاية ما يمكن ــ فى النقطة الاساسية يحولنا عن فكرة التطويق الاستراتيجى فيجيء التطويق الاستراتيجى فى أعقاب هذا آلياً . . . ، وعلى أية حال توجد فرصة واحدة هى التى تمكن التحرك الاستراتيجى ضد جناح العدو إلى نجاح يماثل ذلك الذى يمكن الوصول إليه من المعركة . وذلك فى البلاد الفقيرة (القليلة الإنتاج)عند ما يكون العدو قد جمع بجهد كبير مستودعات تموينية التى تتوقف كل عملياته على الاحتفاظ بها . . . ، فنى هذه الحال قد يكون من الأوفق أن لا توجه قواتنا الاساسية ضد قوات العدو بل أن نهاجم قاعدة تموينه ومع هذا فمن الضرورى لهذا أن يتوفر شرطان . . .

(ا) يجب أن يكون العدو بعيداً عن قاعدته بدرجة أن تهديدنا لهذه القاعدة يرغمه على تقهقر طويل ...

و . . .

(ب) يجب أن نستطيع ايقاف تقدمه فى الاتجاه الذى تتبعه قوته الأساسية بعدد قليل من الجنود ؛ وبذلك لا يستطيع الهجوم فى مكان آخر ليعوض خسارة قاعدته

١٣ — تموين الجنود شرط ضرورى للحرب ولهذا فله تأثيره على العمليات وعلى الأخص لأنه يسمح بحشد محدد من الجنود ولأنه يعاون على تقرير مسرح الحرب نتيجة لاجتياز خط العمليات.

١٤ — يستمر تموين الجنود إذا سمحت المنطقة أو الاقاليم بذلك تبعاً لحاجة الجنود حتى ولو كان هذا الاقتطاع من أنصبة المدنيين .

على أن الحديث عن التموين يوجهنا إلى مسألة يجب أن نعنى بدرسها ففى الأسلوب الحديث للحرب تحتل الجيوش أرضاً أكثر من ذى قبل وهذه الجيوش تتكون من فيالق منفصلة .. ثم ان الفرق التى فى الفيلق الواحد تتقدم إلى المعركة مستقلة .. فتسير إما جنباً إلى جنب أو وراء بعضها البعض وكل ما يجب أن يوضع موضع التقدير هو أن تكون قريبة من بعضها بحيث تشترك فى نفس المعركة إذا كانت تتبع جيشاً واحداً ، وهذه الصورة التى تتشكل فيها وحدات الجيش تمكن من الإمداد بالتموين دون إعداد مستودعات خاصة ... سيما إذا قدرنا أن التنظيم الحديث يجعل لكل وحدة أو تشكيل قيادته وهيئة أركان حربه المسئولة عن تموينه .

١٥ — والواجب دائماً أن نتخير أخصب منطقة لعملياتنا لأن سهولة التموين تزيد من سرعة عملياتنا إلا إذا وجدت دوافع حاسمة كموقف قوات العدو الأساسية ومكان عاصمته وموقع الوحدات ... أما باقى الإعتبارات كالتوزيع والتجمع فانها أقل أهمية من هذه الدوافع الحاسمة المشار اليها . .

١٦ — ولكن من المحال ـ بالرغم من الوسائل الحديثة للتموين ـ أن تتم عملية تموين أى جيش دون إنشاء مستودعات يمكن منها الامداد ... ولهذا فحتى عندما تكون موارد الأقليم غير كافية فان القائد العسكرى العاقل لا يفشل فى إنشاء المستودعات فى مؤخرته لمواجهة الحالات غير

المتوقعة ولكى يستطيع حشد قواته فى نقط معينة ، وهـذا الاحتياط من الوسائل التى تتخذ على حساب الغرض النهائى ...

* * *

(٢) الدفاع

١ ــ والحرب الدفاعية من الناحية السياسية هى الحرب التى نخوض غمارها لأجل استقلالنا ، أما من الناحية الإستراتيجية فهى صورة الحملة العسكرية التى نحدد فيها لأنفسنا قتال العدو فى مسرح حرب قد أعددناه خاصة لهذا الغرض ، وسواء أكانت المعـــارك التى سنخوضها فى مسرح الحرب وسواء أكانت هى للهجوم أم للدفاع فالأمر سيان .

٢ ــ ونقوم بالدفاع الاستراتيجى أساسياً عند ما تكون الأفضلية فى جانب العدو ، وتعطى القلاع والمعسكرات المحصنة التى تكون الترتيبات الرئيسية لمسرح الحرب منافع عظيمة يمكن أن يضاف إليها معرفة الأرض وتملك الخرائط الجيدة .

والجيش الصغير أو الجيش الذى يستند إلى أمة صغيرة وموارد محددة جداً يكون ــ إذا توفرت له هذه المنافع ــ أقدر على مقاومة جيش آخر قد يكون أكثر عدة وعدداً .

فإذا اضطررنا بسبب نقص ثقتنا فى جنودنا وقادتنا إلى القيام بحرب دفاعية فإننا غالباً نود إلى الجمع بين الدفاع الاستراتيجى والتكتيكى ، وفى هذه الحال فإننا نخوض غمار المعارك فى مواقع محددة حتى لا نتعرض إلا لأخطاء قليلة .

٣ ــ وفى الحرب الدفاعية ــ كما فى الحرب الهجومية ــ من

الضرورى أن نتعقب غرضاً عظيماً هو تدمير جيش العدو أن يجعل بقاؤه من الصعوبة بمكان وبذلك فإننا نربك تنظيمه ونرغمه على التقهقر ، وفى أثناء هذا يتكبد جيش العدو خسائر فادحة ؛ وأحسن مثل لهذا نجده فى حملة ويلنجتون عامى ١٨١٠/١٨١١ فإن قيام سكان شبه جزيرة ايبريا بتدمير مستودعات التموين التى فى اسبانيـا مختارين قد جعل بقاء الجيش الفرنسى صعباً غير محتمل .

والحرب الدفاعية ليست بالبقاء بلا عمل فى انتظار ما يحدث ؛ فنحن يجب أن ننتظر فقط إذا كان الانتظار يمكننا من الحصول على فوائد حاسمة وعندما يكون العدو يجمع قوات جديدة لضربة قوية فإن الهدوء الذى يسبق العاصفة يكون من الخطورة بمكان بالنسبة للمدافع .

فإذا كان النمسويون بعد معركة (اسبرن) قد زادوا من قواتهم لثلاثة أضعافها كما فعل الإمبراطور نابليون لكانوا قد انتفعوا من الغموض الذى سيطر على مسرح الحرب واستمر حتى معركة واجرام ؛ ولكنهم لما لم يفعلوا هـــذا كان الوقت بالتبعية قد ضاع هباء . . ؟ وهكذا ترك النمسويون الفرصة التى سنحت لهم فى الموقف الضار الذى وقفه جيش نابليون بعد معركة اسبرن

٤ — ويجب أن ندرك دائماً بأن الغرض من التحصينات هو إبقاء جزء كبير من جيش العدو مشغولاً بعملية الحصار وبذلك يمكن أن ننتصر على الجزء الباقى من جيشه والذى قد يستخدمه فى الميدان المكشوف . . ، والأصلح دائماً أن نقاتل ما دمنا نقف موقف الدفاع من وراء تحصيناتنا لا من أمامها ، ولكن يجب أن لا نقف بلا عمل بينما يهاجم العدو هذه

التحصينات كما فعل بينيجسين Bennigsen القائد العام الروسى فى حصار دانزج فى ربيع عام ١٨٠٧ فقد استمر الحصار من مارس إلى مايو وبقى القائد الروسى فى جوار دانزج بلا عمل وبذلك أمكن لنابليون أن ينتفع بجزء كبير من جيشه فى معركة فريدلاند .

٥ — وتعتبر الأنهار الكبيرة التى يصعب انشاء معابر فوقها كالدانوب جنوب فيينا أو الجزء السفلى لنهر الرين . . . وغيرها خطوط دفاع طبعية ؛ ولكن يجب أن لا نقسم قواتنا على طول شاطىء النهر لكى نمنع أى عبور فان هذا من الخطورة بمكان .. بل على النقيض يجب أن نراقب النهر ونسقط على العدو من كل الأجناب لحظة عبوره للنهر عند ما لا يكون قد أعاد جمع قواته أى عند ما تكون قواته محددة بمساحة ضيقة من شاطىء النهر . . وتعطى الفترة التى تلت معركة اسبرن صورة جيدة لهذا .. فعندما وصلت الامدادات لنابليون حاول عبور الدانوب فى الرابع من يوليو ونجح فى عبوره وبذلك كسب معركة واجرام ٥ / ٦ يوليو سنة ١٨٠٩ .

٦ — الجبال هى النوع الثانى من الموانع التى تعتبر خط دفاعى جيد ، وتوجد طريقتان لاستخدام الجبال الأولى أن نتركها أمامنا فنحتلها فقط بقوات خفيفة وأن نعتبرها كنهر يجب أن يعبره العدو ، وهو لايستطيع هذا فى سرعة إلا إذا قسم قواته من الممرات الضيقة ، فإذا ما فعل هذا وجب ان نسقط على هذه القوات المنفصلة عن بعضها بقوات كبيرة تمكننا من أن نهزم كلا منها على حدة .

والطريقة الثانية هى أن نحتل الجبال فى قوة ، وفى هذه الحال

يجب أن ندافع عن كل ممر بقول صغير مع الإحتفاظ بجزء منهم من الجيش (ثلثه أو نصفه) فى الإحتياطى حتى إذا ما هاجمنا قوات العدو التى تنجح فى الإختراق كانت الأفضلية فى جانب القوات التى تقوم بالهجوم ، ولا يجب أن نقسم إطلاقاً هذا الاحتياطى الـكبير لنمنع أى قولات للعدو من الإختراق ..؛ ولـكن يجب من البداية أن نضع خطة السقوط على تلك القولات التى نظنها الأقوى من غيرها .. فإذا استطعنا أن نهزم جزءاً كبيراً من الجيش المهاجم فان أى قول يكون قد نجح فى الإختراق ولو جزئياً سيضطر إلى التعجل فى الانسحاب ...

ونجد فى أغلب المناطق الجبالية سهولاً كثيرة منبسطة هى التى نوسمها من الناحية الجغرافية بعنوان الهضاب ..، وتقطع منحدرات هذه السهول وديان تعتبر خطوط تقدم .. وبذلك يمكن القول إن الجبال تعطى المدافع منطقة يستطيع أن يتحرك فيها لليمين أو لليسار بسهولة بينا تبقى قولات المهاجم منفصلة عن بعضها البعض بمناطق وعرة لا يسهل عليه اجتيازها والجبال التى من هذا النوع فقط هى التى تصلح للحرب الدفاعية ، فإذا كانت كل مناطقها الداخلية — من جهة أخرى — وعرة ولا يمـكن عبورها واجتيازها سببت تقسم قوات الدفاع وتوزعها وتـكون عملية الدفاع بكل مجموعة الجيش مسألة خطرة إذ أن كل الفوائد والمنافع تكون فى ذلك الوقت فى جانب المهاجم .. الذى يستطيع أن يقوم بالهجوم فى نقط معينة بأفضلية كبرى ؛ ولا يوجد أى ممر ولا أى نقطة منعزلة لا يمكن الإستيلاء عليها فى نهار واحد إذا توفرت كل صور الأفضلية فى جانب المهاجم ..

٧ — أما بالنسبة للحرب الجبلية من وجهة عامة فيجب أن نلاحظ

بان كل شيء يتوقف على مهارة الضباط التابعين بل وإلى أبعد من هذا على القوة المعنوية لجنودنا ، وهنا لا تكون المسألة مسألة مناورات تجرى بمهارة بل روح اقتتال واتجاه قلبي للدفاع عن الغرض ، ذلك لأن كل فرد يترك ليعمل مستقلاً مهما قلت أو زادت صورة هذا الإستقلال ... وهذا هو السبب في أن القوات الأهلية (الميليشيا) تصلح بنوع خاص لحرب الجبال ... فبينما تفتقر إلى القدرة على المناورة فانها تمتلك الصفات الأخرى اللازمة لهذا النوع من القتال بدرجة كبيرة .

٨ — وأخيراً يجب ملاحظة أن الدفاع الاستراتيجي وإن كان أقوى من الهجوم يجب أن يستخدم فقط لكسب أول أدوار القتال الناجحة : فان كسب هذه المعارك يمكن في حالة حدوث السلم مباشرة أن نستثمر هذا الكسب بالهجوم ؛ ولكن إذا بقينا في الدفاع باستمرار فإننا نخاطر بان نخوض دائماً غمار الحرب على حسابنا !!! أي اننا نحتمل الغرم كله ، وهذا أمر لا يمكن أن تحتمله أي أمة ، فانها لو قنعت بتلقي ضربات الخصم دون أن تردها له فسيجهدها هذا ، ولهذا دائماً يجب أن تبدأ باستخدام الدفاع على أن ينتهي أكثر نجاحاً باستخدام الهجوم .

((*))

(٣) الهجوم :

١ — يتتبع الهجوم الاستراتيجي الغرض الأساسي للحرب مباشرة متجهاً إلى تدمير قوات العدو بينما يعمل الدفاع الاستراتيجي على إدراك هذا الغرض من طريق غير مباشر ، ومبادىء الهجوم واضحة في الأصول

العامة للاستراتيجية فيما عدا نقطتين تتطلبان أن نذكرهما هنا تفصيلياً .

٢ — الأولى هي وضع (اختيار المواقع) الجنود والأسلحة ، وهذا أمر أسهل وأيسر بالنسبة المدافع وذلك بسبب قربه من موارد تموينه ، فالمهاجم ولو أنه يسيطر في أغلب الأصول على مملكة كبيرة فانه يفعل هذا بصعوبة ، ومالم يجد نفسه أقل درجة في التأثير فانه يجب أن ينظم قواته ويمدها بالأسلحة قبل أن يحتاجها لوقت طويل . . . ، كما يجب أن تغطى الطرق التي تؤدى لخطوط عملياتنا بالجنود والحملة والتموين .. ، ويجب أن ننشيء محطات عسكرية على طول هذه الطرق لتزيد من سرعة تحرك جنودنا .

٣ — وحتى في ضوء أغلب الظروف المواتية ومع توفر التفوق المعنوى فإن المهاجم يجب أن يقدر من البداية إحتمال أن يتكبد خسارة فادحة ولهذا فإنه يجب أن ينظم نقط قوية على خطوط عملياته يمكن أن يرتد إليها لو هزم جيشه .، وهذه النقط إما أن تكون قلاعا أو معسكرات محصنة جزئياً

والأنهار الكبيرة تقدم أحسن الوسائل لإيقاف العدو المطارد لبعض الوقت ، ولهذا يجب أن نحمى عبورنا بواسطة روس كبارى محاطة بعدد من الاستحكامات السريعة القوية .

ويجب أن نترك وراءنا عدداً من الجنود لاحتلال هذه النقط القوية واحتلال المدن المهمة والقلاع؛ وعدد هؤلاء الجنود يتوقف على درجة خوفنا من الغزو كما يتوقف على حال الأهلين ، وهؤلاء الجنود بالإضافة إلى الإمدادات في الرجال تكون فيالق جديدة تتبع في حالة النجاح الجيش المتقدم ؛ ولكن في حالة النكبات والهزيمة تحتل النقط المحصنة لتحمي تقهقر

وقد عنى نابليون دائماً بهذه التدابير لحماية مؤخرة جيشه وبذلك فإنه في أكثر عملياته العنيفة كان يواجه من الأخطار ما يقل بكثير عما يجب أن يواجه منها ...

تطبيق هذه الأصول في وقت الحرب

وأصول فن الحرب في حد ذاتها بسيطة جداً ويمكن إدراكها بتقدير جيد حكيم، وحتى لو أنها تتطلب دراية خاصة أكبر بفن القتال عنها بالاستراتيجية فإن هذه المعرفة لايمكن أن تقارن بأية معرفة من نوع آخر في المدى والتباين، ولا تتطلب الحال معرفة ودراية عميقتين، بل ولا يتطلب الأمر في حد ذاته عقليات فذة غير عادية ؛ بل إذا كان من الممكن أن نقول بأن الأمر يتطلب بالإضافة إلى هذه الحكمة والدراية أي صفة عقلية خاصة فهي بعد كل شيء دهاء وخبث ..؟ والتجارب هي التي تقهر الرجال ففي حرب الثورة نجد عـــدداً من الرجال الذين أثبتوا أنهم قادة ذوو مقدرة عسكرية أو قادة من الدرجة الأولى دون أن تكون لهم سابقة دراسة عسكرية ... بل إننا نجد الكثيرين من كبار القادة الأوربيين أمثال (كوندى .. وويلينستين .. وسوفوروف)(١) في القرنين السابع والثامن عشر يشك في أنه لهم سابق دراسة عسكرية .

---

(١) كوندى هولويس دى بوربون أمير كوندى (١٦٢١ — ١٦٨٦) بدأ حياته العسكرية في عام ١٦٤٠ قرابة نهاية حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ — ١٦٤٨) ، وفي عام ١٦٤٣ عين قائداً للقلاع الفرنسية في شمال فرنسا ضد القوات الإسبانية فكسب معركة (روكروى) الحاسمة ، فكان هذا القصد هو الذى جعله من أبرز الصور العسكرية في التاريخ .

البرخت فون ويلينستين (١٥٨٣ — ١٦٤٣) شريف بوهيمى من بوهيميا =

وإدارة الحرب بلا شك صعبة جداً ولكن هذه الصعوبة ليست بالأمر الذى لا يمكن إدراكه كما أنها ليست بالشيء الذى يتطلبه أكثر من ضرورة تفهم الأصول الأساسية للحرب فإن هـــذه الأصول يستطيع إدراكها أى عقل منظم .. أى عقل غير متعصب بأمر ما أو تسيطر عليه تعاليم خاصة وتتوفر فيه دراية بالموضوع .

وتطبيق هذه الأصول على الخرائط والمصورات وعلى الورق ليس بالأمر الصعب ؛ ووضع التخطيط لعملية حربية لا يعتبر عملاً فذاً فإن الصعوبة إنما هى فى :

١ — أن نضع نصب أعيننا دائماً الأصول التى وضعناها لأنفسنا

٢ — إدراك أن إدارة الحرب تماثل عمل آلة معقدة كثيرة الأجزاء تتشابك بعضها البعض ولذا فإن كان تنظيم عمل هذه الأجزاء ميسوراً على الورق فمن الصعب تنفيذه فى الحقيقة والواقع إلا بجهد كبير .

= كان من القادة الأفذاذ فى الحزب الكاثوليكى الأمبراطورى فى حرب الثلاثين سنة وكانت كل ثقافته العسكرية تافهة لا يؤبه بها ..؟ واشترك فى القتال لمسامين اثنين (١٦٠٤ — ١٦٠٦) ضد الأتراك والمجريين ؛ ومن عام ١٦١٧ وما بعدها كان قائداً لعدد كبير يتزايد من الوحدات ، ومن معاركه الفذة وقوفه فى وجه جوستاف أدولف ملك السويد عند نورمبرج فى جنوب ألمانيا يوم ٣ سبتمبر عام ١٦٣٢ فبالرغم من الخسائر الفادحة لم يستطع جوستاف أن يرغم ويلنستين على الإرتداد من مواقعه .

الكونت الكسندر سوفوروف (١٧٢٩ — ١٨٠٠) اشتهر بقيادة القوات الروسية فى حروب كاترين الثانية ضد الأتراك (١٧٦٨ — ٧٤ — ٨٧ — ١٧٩٢) ، وفى عام ١٧٩٩ تولى قيادة الجيوش الإيطالية ضد الإتحاد الفرنسى الثانى ونجح فى طرد الفرنسيين من إيطاليا ...

ولهذا فإن الفرد يحتاج إلى قوة عقلية ونفسية فذة كي يمكن أن يتغلب على اضطراب الإحتكاك بين أجزاء آلة الحرب، كما يجب أن نعمل لتنفيذ كل شيء في بساطة واعتدال ..، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن القائد مع هذا يحس دائماً بقلق !!!، والقلق هنا أساسه الغموض الذي يواجه القائد عند ما يخطوأولى خطواته في ميدان المعركة . . .

ولكن ماهي الأسباب الأساسية الدافعة لهذا القلق .. إذا تباينت الآراء في إحصاء أسبابها . . . ؟ ! . . . يقول كلاوزفيتز في هذه المرحلة من الحديث — وهي مرحلة كانت بين المراحل الكثيرة التي أفاض فيها ما يمكن أن نقدمه نحن هنا في الفقرات التالية . . .

١ — العادة أننا من وجهة عامة لا ندرك تماما أوضاع وتدابير العدو كما نقدر في خطتنا للعمليات ، وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتنفيذ قرارنا تبدو فجأة آلاف الشكوك عن الأخطار التي قد تنشأ إذا كنا قد أخطأنا في تخطيطنا ، وإذ ذاك يتملكنا شعور بعدم الإستقرار . . . هذا الشعور الذي يتملك عادة كل شخص يواجهه عملاً عظيما ، ومن هذا ينشأ عدم إستقرار في التنفيذ .

٢ — ثم إننا لا نكون فقط غير متأكدين من قوة العدو بل بالإضافة إلى هذا فان الاشاعات (كل الانباء التي تجيء من النقط الخارجية أو عن طريق الجواسيس أو بالصدفة) تزيد من قوة العدو ، فاذا قدرنا أن الانسان بالطبيعة يخاف المجهول الغامض فان القادة دائما يضاعفون من الخطر الذي يواجههم .

لذلك تتجمع كل المؤثرات على القائد العسكري لتعطيه صورة خاطئة

عن قوة العدو ومن هنا ينشأ مورد جديد يسبب عدم استطاعته إصدار قراره .

فاذا ناقشنا حديث كلاوزفيتز وجدنا أننا عندما نصل الى الخطة الأصلح والأصوب يجب أن ننحرف عنها ولو لدرجة تافهة . . بل على النقيض يجب أن نكون مستعدين أن ننقد التقارير التى تصلنا بعناية وأن نقارنها ببعضها البعض وأن نحاول الحصول على أكثر منها ، وفى هذه الحال فان التقارير المكذوبة (غير الصحيحة) تبد وكذلك مباشرة ولأول وهلة ، فاذا افتقرنا إلى هذا التأكيد وجب أن نقول لأنفسنا أنه لا يمكن إدراك أى شىء فى الحرب إلا بالجرأة وأن طبيعة الحرب لا يمكن أن تجعلنا فى كل وقت نرى أين نسير ، وأن كل هو محتمل يكون ممكناً مستطاعاً حتى فى اللحظة التى يبدو فيها كذلك ..، وأخيراً يجب أن ندرك بأننا لن نفقد كل شىء لخطأ عارض إذا كنا نقوم بترتيبات معقولة . . .

٣ — على أن عدم تيقنا من الموقف فى لحظة ما لا تحدده حال العدو وحدها بل قد تسبب هذا قوة جيشنا كذلك ..، ومن النادر أن يحتفظ القائد بالوسائل التى تمكنه من معرفة كل أجزائه فى أية لحظة ...، فاذا كنا لا نميل الى عدم الاستقرار نشأت شكوك جديدة ووجدنا أنه من الضرورى أن ننتظر فستكون نتيجة هـذا تعطل كل خطتنا وهى نتيجة لا مناص منها . . .

ولهذا فمن الضرورى أن نثق بأن التدابير العامة التى اتخذناها ستجىء بالنتائج التى نتوقعها ، وأهم ما يتصل بهذا هو ثقتنا بقادتنا الأصاغر ، ولهذا فان الاهمية بمكان أن نتخير رجالنا الذين نعتمد عليهم ثم نضع جانباً

باقى الاعتبارات الأخرى ، فإذا قمنا بالتدابير اللازمة مقدرين كل النكبات المحتملة فلا نضطرب لها لأول حدوثها يجب أن نتقدم بشجاعة وسط أشباح الشكوك التى تحتاطنا ...

٤ — فإذا خضنا غمار الحرب بكل قوتنا فإن قادتنا التابعين وحتى جنودنا (وخاصة إذا كان هؤلاء غير معتادين القتال) سيجدون صعاباً يعلمون من المحال التغلب عليها ..، فهم يجدون السير طويلاً ... والإجهاد عظيماً .. والامداد بالتموين مستحيلاً ، فإذا ألقينا أذنا صاغية لهذه «الصعاب» كما أسماها فردريك الثانى فسرعان ما تتهدم كل جهودنا ، وبدلاً من أن نعمل بقوة وعزيمة فإنا نعمل فى ضعف بل ودون أن نبدى صورة من صور النشاط ؛ ولكى نقاوم هذا يجب أن نثق بتقديراتنا وقدرتنا ؛ وقد تبدو هذه الثقة كصلابة مراس أو عناد ... ولكنها فى الحقيقة دليل قوة العقل والخلق ...

٥ — والنتائج التى يمكن أن نقدرها حق قدرها فى الحرب .. ليست بسيطة موجزة كما يظن أولئك الذين لم يرقبوا أى حرب ثم يجدون أنفسهم فجأة وهم يخوضون غمارها ...

والغالب أننا عند ما نقدر مسير قول ما ثم نجده بعد ساعات طويلة لا زال دون غرضه بمسافة ما لا نستطيع أن ندرك بسهولة سبب تعطله عن إدراك هذا الغرض ... وهكذا الحال بالنسبة لموارد منطقة ما إذا ماجاءت أقل مما نتوقع ... وهذه هى الحال نفسها بالنسبة لغير هذى وتلك من المسائل العامة ... التى يمكن أن تعرض لها القوات المقاتلة ... فالفكرة هى أن القائد يجب أن يتوقع دائماً أن يصدم بموانع مثل هذى ... ولكن كل ما يجب أن يضعه نصب عينيه هو أن كل هذه الصعاب لا قيمة لها...

إذا توفرت له الجرأة والثقة بالنفس .، وهى لن تؤثر فى عملياته .. ولن تجعله يتوقف بعيداً عن إدراك غرضه .

٦ — ويجب أن لا يفكر القائد تفكير الرجل الذى يجلس فى مقعد مريح بعيداً عن ميدان المعركة . . . . فإنه لو كان فخوراً بجيشه لقدر قوته بأكثر من حقيقته بثلث أو نصف الحقيقة ..وطبيعياً أن العكس صحيح .. فإذا قدرنا أن الزيادة فى التقدير ينتج عنها الاضطراب فى مواجهة الحقيقة عندما نصدم بها ، فإن قدر قواته بأقل من حقيقتها لم تتوفر له الجرأة للاشتباك . . فإذا فقد القائد ثقته بجنوده . . فقد ثقته بنفسه وبذلك يفقد المعركة قبل أن يبدأ بالاشتباك . . . والقائد العسكرى الملىء بالاطماع يدرك غرضه برغم كل العوائق التى تواجهه ما دام يتعقب قصده بعناية وقوة ارادة.

وقد أثبت مسينا فى جنوا وفى البرتغال على الأخص تأثير القائد القوى فى جنوده . . فعندما ارتدت القوات الإنجليزية للداخل تاركة وراءها منطقة جبلية جرداء لا تموين فيها لم يخض الفرنسيون إلا غمار معركة كبيرة واحدة . . . وإذا كان مسينا قد خسر خمسة وعشرين ألفاً من جنوده بسبب الجوع والمرض فإنه لم يخسر جندياً واحداً فى تقهقره الطويل بسبب سيطرته على جنوده .

وفى أغلب الأوقات يكون جيش العدو فى ذات الموقف الذى نواجهه نحن ... هكذا كان ويلنستين وجوستاف أدولف فى نورمبرج ، وهكذا كان نابوليون وبنيجسين بعد معركة يالو ، ولكن الكثيرين من القادة لا يعنى أى منهم إلا حال جيشه غاضاً البصر عن حال العدو ، ولهذا فإنه قد يقوم باجراء خاطىء .. فبعد معركة يالو كان كل من جيش الفرنسيين

والروس قد فقد ثلث عدده ولكن عند سقوط ظلام الثامن من فبراير عام ١٨٠٧ لم يكن أى من الجانبين قد حصل على نصر حاسم ولكن بينيجسين فى غمرة رؤيته للاجهاد الذى تحسه قواته وخشيته مما يمكن أن يصل للفرنسيين من امدادات انسحب تاركاً لنابليون أن يكسب ثمار القتال .

٧ — ومهما كانت وسيلة تموين الجنود ... فمن الضرورى أن نضع موضع التقدير ضرورة توفر التموين الكافى للجيش فى مدى العمليات إما باحتجازه فى المستودعات أو عند الأهلين حتى نحتاجه

٨ — ويجب أن لا نكتفى بالمظهر الخارجى للأشياء .. بل يجب دائماً أن نصل إلى لب الموضوع .. وأن ندرك كل شىء على حقيقته حتى ولو جازفنا بتضحية المظاهر الخارجية للأشياء .. وتفكيرنا فى هذا المظهر الخارجى للأشياء يجعلنا نرى وجهاً واحداً لكل شىء .... ولهذا يجب أن نحصن أنفسنا ضد هذا التأثير . . وأن يتوفر فينا الإيمان الأعمى بنتائج تطوراتنا المبكرة لنقوى أنفسنا ضد التأثيرات التى تضعف من قوتنا المعنوية ...

فهذه الصعاب كلها تتطلب منا الثقة والصلابة ... وهذا هو سبب أهمية دراستنا للتاريخ العسكرى ..، لأن هذه الدراسة تمكننا من رؤية الأشياء كما هى على حقيقتها والأصول التى نستطيع تعلمها من التعاليم النظرية تسهل هذه الدراسة وتجتذب انتباهنا إلى العناصر الهامة فى تاريخ الحرب

ولهذا يجب أن يدرس الفرد أصول الحرب بعناية لكى يستطيع مناقشة تاريخ الحرب فى ضوئها وأن يرقب ما إذا كانت متفقة معها أم لا ويكتشف وحده أين أحسن تطبيق أو أسىء هذه الأصول ، ودراسة

التاريخ العسكرى يمكن أن تعطى أولئك الذين لا تجربة لهم فكرة واضحة عما سبق أن قيل عنه أنه الإحتكاك بين أجزاء الآلة المعقدة ...

ويجب أن لا نقنع بالخاتمة الأساسية بل وأقل من هـذا بالتعليل الذى يقدمه المؤرخون ، بل يجب أن نتصرف فى دراسه التفاصيل إلى أعمق ما يمكن لأنه من النادر أن يكون غرض المؤرخين إظهار الحق ! ، فالعادة إنهم يرغبون تمجيد أعمال جيوشهم وقادتهم وأن يعرضوا الحوادث بما يتفق وخيالاتهم !! ولهذا فهم يخترعون التاريخ بدلا من أن يسجلوه

وفى هذه الدراسة للتاريخ العسكرى يجب أن نضع نصب أعيننا بأنه من الأصلح أن نحصل على معرفة تفصيلية لاشتباكات فردية بدلا من الحصول على معلومات عامة عن حملة كاملة أو حتى لعدة حملات ، أى أنه من الأصلح أن نقرأ سجلات مفصلة عن أن نطالع مؤلفات كاملة فى التاريخ الحربى ..

ويقدم كلاوزفيتز أنموذجاً يعتد به فى وصف الجنرال شارنهورست مدينة « مينين » المحصنة فى الفلاندرز عام ١٧٩٤ والذى طبع فى ذكرياته لهذه المعركة ونشره عام ١٨٠٣ ، وهو حديث عسكرى تفصيلى يعطى فى رأى كلاوزفيتز صورة جيدة للأسلوب الذى يجب أن يكتب به التاريخ .

على أن معركة « مينين » تعطى كذلك صورة صحيحة من أن القائد يجب أن لا ييأس من النجاح فى الحرب ...، وفى طوال هـذا يجب أن يتبع تماماً أصول الحرب مهما مرت به من لحظات حرجة .

إن الدافع القوى تأثيره فى زيادة مقدرة القـائد على القتال سواء

أكان هذا الدافع طمعاً كما كان في قيصر .. أو كراهية للعدو كما كان في هانيبال .. أو زهواً بالإنتصار كما هو الحال في فردريك الأكبر ..

« يجب أن يفتح القائد قلبه لهذا الدافع القوى . وأن يكون جسوراً مليئاً بالدهاء صلباً عنيفاً مصراً على العمل للنهاية .. وبذلك يستطيع أن يمجد إسمه وأن يضع على جبينه أكاليل الغار وأن يسجل شهرته في قلوب مواطنيه لعشرات الأجيال !!..

— ٨ —
حكم نابليون ...
التي أثرت في كلاوزفيتز ...

وقد يكون لزاماً علينا قبل أن نعرض لتطبيق أصول تعاليم كلاوزفيتز في ضوء العصر الحديث الذى نعيش فيه أن نقف متمهلين بازاء « حكم » نابليون التى كانت صدى عبقرية المحارب الأكبر فى العالم الغربي . . وأن نتعقب بدورنا السطور التى أثرت فى كلاوزفيتز فخرج هو بالأصول التى كانت ولاشك نتيجة هضمه لأصول نابليون ..، وإن كان هذا الحديث في الواقع يتطلب منا أن نقف أيضاً بازاء رجل آخر من رجال الأستراتيجية فى عصر قريب منا كفوش مثلا .. ولكن هذا الحديث قد لا يكون له من محل فى هذا البحث الموجز الذى نقدمه اليوم . . .

ثم إننا لا نستطيع كذلك أن نقف أمام « حكم » نابليون جملة واحدة .. فهذا جهد يتطلب منا كتاباً وحده ..، وهو أمر قد نعرض له فى مؤلف خاص به وبين سبقوه من رجال الأستراتيجية من فجر القرن السادس عشر .. ولهذا فقد كان لزاماً علينا أن نثب وسط هذه

« الحكم » Maxims وثبات سريعة مقدمة الموضوعات التى تعرضنا لها عند حديثنا عن التعاليم التى جاء بها كلاوزفيتز .

على أنه قد يكون لزاماً علينا هنا أن نقول بأن كلاوزفيتز عندما يقدم نماذج لتعاليمه فانه يشير إلى حملات صحيحة قد درسها بعناية أو أشترك فيها ..، وفى هذا الجزء من كتابه نلتقى كلاوزفيتز العسكرى الموهوب .. فإذا تحولنا إلى كلاوزفيتز الناقل لتعاليم الآخرين وجدنا إننا نغفل عن أصل فكرته وعن المرونة التى فى آرائه وهـذا ولاشك يكشف لنا عن حقيقة جديرة بالتنوية هى أن كلاوزفيتز أدرك أن الحرب عرضة للتغيير ثانية كما حدث هذا فى الماضى من قبل .

وقد نقلت هـذه السطور التى نقدمها هنا عن كتاب « أصول الأستراتيجية » لتوماس فيليبس وهى فى رأيى تصور ناحية فذة من عسكرية نابليون التى أثرت فى كلاوزفيتز ، ولعل القارىء يلاحظ أن الأرقام التى تجىء أسفل كل من هذه السطور يدل على ترتيبها فى صفحات هذا الكتاب الذى تحدثنا عنه .

الكفاح ضد الأفضلية العددية

« عندما يكون جيشك أقل فى الناحية العددية من خصمك »
« بالنسبة للفرسان والمدفعية وجب أن تتجنب المعركة الثانية — إن »
« الافتقار إلى الفرسان عددياً يعوض بالأسراع فى السير .. كما تعوض »
« الحاجة إلى المدفعية بالقدرة على المناورة ...، ومن الأهمية بمكان فى »
« مثل هذا الموقف أن تتوفر الثقة بين الجنود .. »   (١٠)

خفة الحركة

« قوة أى جيش تقدر بثقل قواته مع سرعة حركته ، والسير »
« السريع يوجد تأثيراً معنوياً نافعـــاً فى الجيش ويزيد من وسائله »
« للنصر . . » (٩)

المهارة

« إن أول ما يجب أن يتوفر فى القائد رأس هادئة وبذلك تظهر له »
« الأشياء على حقيقتها وفى مظهرها الصحيح ..، ويجب أن لا يقاسى »
« هو نفسه من أن يتأثر بالأخبار الحسنة أو السيئة . » (٧٢)

« لا يستطيع القائد العام أن يتخلص من مسئولية اخطائه بالرجوع »
« فى هذا إلى الأوامر التى تلقاها من الملك أو الوزير عندما يكون »
« هذا الفرد الذى تجىء منه الأوامر على مسافة من ميدان العمليات »
« وعندما يكوى إلى حد ما أو عندما لا يكون أطلاقاً على علم بطبيعة »
« الأحوال التى تواجه القائد . » (٧٣)

« إنما يتبع القائد العام تجاربيه الخاصة ومواهبه ، فان تطورات »
« فن القتال .. والعلوم الهندسية .. وفنون المدفعية يمكن أن تدرس »
« من الكتب ..؛ ولكن القيادة تجىء من التجارب ومن دراسة »
« حملات كبار القادة ؛ إن جوستاف أدولف وتورين وفردريك »
« والاسكندر وهانيبال وقيصر قد عملوا كلهم بذات الأصول » (٧٧)

« من الصعب .. بل ومن الشـــاذ النادر أن نجد كل الصفات »
« اللازمة لقائد عظيم مجتمعة كلها فى رجل واحد ..، إن أكثر »
« ما هو مرغوب فيه .. وما يميز هذا الرجل الشاذ هو الموازنة بين »
« الذكاء والمقدرة مع الشجاعة ..، فإذا كانت الشجاعة هى الناحية »
« الأوضح فيه اندفع إلى أبعد مما يستطيع أدراكه ، وعلى نقيض هذا »
« فإنه لا يجرؤ على اتمام تصوراته إذا كانت أخلاقه أو شجاعته أقل »
« درجة من ذكائه . » (٨١)

« ليس أهم فى الحرب من توحيد القيادة ، ولهذا فلما كنت »
« تقاتل ضد قوة واحدة فقط فمن الواجب أن يكون لك جيشاً واحداً »
« يعمل على خط عمليات واحد ويقوده قائد واحد » (٦٤)

خط العمليات

« يجب أن يكون لـكل جيش خط عمليات واحد يحتفظ به بعناية »
« ولا يجب أن يترك هذا الخط إلا إذا اضطر لهذا تبعاً لظروف هى التى »
« ترغمه على هذا ... »

(١٢)

« كقاعدة عامة فإن أهم مناوراتك هى أن لا تهجر خط عملياتك »
« أبداً .. ولـكنك تستطيع أن تغيره عند ما تضطرك الظروف لهذا . »

« والجيش الذى يغير خط عملياته بمهارة يخدع العـدو الذى »

« لا يعرف أين تقع مؤخرتك ولا يعرف أين تقع نقطك الضعيفة ليهددها . »

(٢٠)

« لا تهور .. فلا معارضة لأصول الحرب أكثر من السير الجانبي »
« فى وجود عدو يحتل مواقعه فى مرتفعات عالية .. في هـذه الحالة »
« يجب أن تسير أسفل هذه المرتفعات وبذلك تتعرض للخطر الذي يجب »
« أن تتجنبه .. » (٣٠)

الدفاع

« عند ما تطرد من موقعك الأمامى فان نقطة التجمع لقولاتك »
« يجب أن تكون بعيدة فى الخلف فلا يستطيع العـدو الوصول إلى »
« هذه النقطة قبلك . . فإن الخطر الأكبر هو أن تهاجم قولاتك الواحد »
« بعد الآخر بعد أن تتجمع .. »

(٢٧)

« إن الحرب الدفاعيه لا تخلو من الهجوم ، كما أن الحرب الهجومية »
« لا تخلو من الدفاع بالرغم من أن غرضها قد يكون إجتياز الحدود »
« بقوة وغزو أرض العدو .. » (١٠١)

الهجوم

» إن الإنقلاب من الدفاع إلى الهجوم عملية من أدق العمليات
« فى الحرب .. » (١٩)

« إن فن الحرب يشير إلى أنه من الضروري تطويق جناح العدو »
« أو الدوران حوله دون أن تنفصل قواتك عن بعضها .. »
(١٠٢)

خطط الحرب وتخطيط القائد المعركة

« تبسط خطط العمليات تبعاً للظروف والأحوال كموهبة القائد . »
« صفات الجنود .. طبوغرافية مسرح الحرب .. » (٢)

« يجب أن يقول القائد لنفسه عدة مرات في اليوم الواحد .. ماذا »
« فعل إذا ظهر جيش العدو في مواجهتي .. على يميني .. على يساري؟!، »
« فإذا أحس أن تركيباته سيئة أو أن هناك أي خطأ وجب عليه أن »
« يصحح أخطاءه ... » (٨)

« لا تفعل أي شيء يريد خصمك أن تفعله فقط لشيء واحد هو »
« رغبته في هذا ... ولهذا يجب أن تتجنب . . ميدان المعركة الذي »
« يكون خصمك قد درسه ؛ ويجب أن تكون حذراً جداً وأن تعنى »
« بتجنب الميدان الذي يكون الخصم قد حصنه ؛ وكمبدأ عام لا تهاجم »
« موقعاً بالمواجهة إذا كان من الممكن تطويقه والدوران حوله ... »
(١٧)

الحصون والأنهار

« إذا كان جيش العـــدو مغطى بنهر عليه عدة رؤوس كبارى »

« فلا يجب أن تقترب منه بالمواجهة لأن قوتك تكون قليلة الحشد وعرضة »
« لخطر تقسيمها إلى أجزاء منفصلة ؛ ولهذا يجب أن تقترب من النهر »
« الذى تود عبوره فى عدة قولات مشكلة فى تدريج وبذلك لا يتعرض »
« لهجوم العدو إلا قول واحد هو القول الأمامى .. بل أن هذا القول »
« نفسه لا يكون جنبه معرضاً وفى ذات الوقت تقف القوات الخفيفة »
« عند شاطىء النهر .. فإذا أتممت تحصين النقط التى ستعبر النهر فيها »
« تقدم إليها بسرعة وألق بالكبارى عندها ويجب أن تكون حذراً »
« فى أن تكون الكبارى على مسافة من القول القائد لخداع العدو . »
(٣٦)

«عند ما تعبر إلى موقع يسيطر على الشاطىء الآخر فان هذا يمكنك»
«من الحصول على تسهيلات تؤثر فى عبور النهر سيما إذا كان الموقع ممتداً»
« لدرجة تكفى لوضع عدداً كبيراً من المدفعية عنده ... » (٣٧)

« القلاع نافعة فى الهجوم كما فى الدفاع ، ولكن لاشك فى أن »
« القلاع وحدها لا يمكن أن توقف تقدم جيش ولكنها وسيلة جيدة »
« لتعطيل وإجهاد ومضايقة عدو منتصر » (٤٠)

الحرب فى الجبال

« تتوفر فى المنطقة الجبلية مواقع متعددة قوية تحد من ضغط »
« الهجوم ...، ويجب أن تعنى باحتلال المواقع على جنب أو مؤخرة العدو »
« وبذلك لا تترك له أى وسيلة تبادلية إلا الانسحاب من موقعه دون »
« قتال ..، والعادة أن القوات التى تقوم بالهجوم تعمل دائما فى ظروف »
« ليست من صالحها ... ولهذا فيجب أن تعمل دائماً على إرغام العدو »
« ليقوم هو بدور المهاجم ... » (١٤)

* * *

وهذه الآراء التى قدمناها من حكم نابليون تستطيع أن تجد صداها فى تعاليم كلاوزفيتز لو توفر لك الصبر على قراءة كتابه (فى الحرب) فان لم تستطع كان فى الإمكان أن ترجع لها بعض الايجاز فى كتيبه الصغير (أصول الحرب) وهو مذكرة إن لم نقل عنه رسالة ختم بها تعاليمه للأمير فردريك ويليام ولى عهد بروسيا عام ١٨١٣ عندما أختير أركان الحرب الأول للفيلق الثالث تحت إمرة الجنرال ثيلمان ..، وأهم ما يعنينا أن نقدمه هنا عن هذا الكتيب حديثه عن الهجوم والدفاع والتخطيط للمعركة فى فصوله التى وسمها بكلمات (الأصول العامة للهجوم والدفاع ـ الدفاع والاستراتيجية ـ النظرة العامة للقتال) وفى هذه الفصول يقول :

الدفاع والدفاع الهجومى

« وفى الحرب الدفاعية كما فى الحرب الهجومية يجب أن نتعقب غرضاً عظيماً هو تدمير جيش العدو إما أثناء المعركة .. وإما بوضع العراقيل فى طريقه وبذلك فإننا ندمر تنظيماته ونرغمه على التقهقر الذى يتكبد إبانه الخسائر الفادحة »

« ويمكن أن يتم الهجوم من الموقع الدفاعى فى اللحظة التى يقوم فيها العدو بالهجوم فعلا أو عندما يكون فى سير الاقتراب ، ويمكن للقائد فى الوقت الذى يكاد يبدأ فيه العدو هجومه أن يسحب قواته وبذلك يقود العدو برغمه إلى أرض يجهلها ثم يقوم هو بمهاجمته من كل جنب معرض؛ وأصلح تشكيل لكل هذه التحركات هو التشكيل بعمق أى التشكيل الذى يكون ثلثا الجيش أو أقل من هذا بقليل فى المواجهة بيناً يكون الباقى ماثلا للخلف أو مختفياً إذا أمكن »

الهجوم

« إن حشد القوات للهجوم بالمواجهة مسألة مليئة بالحماقة ولم تعد صالحة للنجاح تبعاً للقوة الدفاعية التى للاسلحة الحديثة !!! ولهذا يجب أن نهزم العدو بالقيام بحركة تطويق استراتيجية . . »

« ويجب أن توجه طعنتك الأساسية ضد جناح العدو مهاجمته من الأمام والجنب بل ومهاجمته من الخلف إذا استطعت العمل على خطوط مواصلاته . . »

التخطيط للمعركة

« وكحديث عام فان الغرض الأساسى هو ضمان النصر أى ضمان طرد العدو من ميدان المعركة ... ويجب أن توجه خطة المعركة إلى هذه النهاية لأنه من السهل أن نغير من النصر الحاسم ليكون نصراً حاسماً تبعاً لمطاردتنا النشطة للعدو »

* * *

ولعل هذه الفقرات التى اقتطعت من صفحات هذا الكتيب توضح لك الصلة الكبيرة التى كانت بين كلاويزفيتز واستاذه الروحى نابليون .. ولكن لعلها تكون حافزاً لك على تعقب هذه التعاليم لا فى الرسائل الموجزة بل فى المطولات ككتابه (فى الحرب)

— ٩ —

تطبيق آراء كلاوزفيتز في عصرنا الحاضر

الواقع أن تطبيق آراء كلاويزفيتز فى ضوء أسلحة وموارد الحرب الحديثة مسألة جدلية تتطلب دراسة ليست هينة ؛ إلا أن هذا يقودنا مباشرة إلى الاعتراض الذى يثار بدرجة كبيرة ضد كلاويزفيتز ؛ وهو اعتراض كما قدمت لك يرجع إلى سبب واحد هو عدم العناية ببذل الجهد لدراسة أراء كلاويزفيتز والوصول إلى حقيقة ما يقصده صاحبها ؛ والسؤال الذى يعترض أولئك الذين لا يريدون دراسة كلاويزفيتز ... وهو . . هل يمكن لنظرية وضعت منذ أكثر من ماية عام فى ضوء الأحوال — البسيطة نسبياً — التى جاء بها العصر النابوليونى أن تظل صالحة للتطبيق فى ضوء العصر الذى نعيش فيه ؟!! ؛ ثم هل يمكن تقبل هذا — لو كانت الإجابة... نعم — فى ضوء عصرنا مع تغيير صور الحرب تغيراً واسع المدى قد شاهدناه يتبدل حتى فى حرب واحدة هى الحرب العالمية الثانية .

إن الإجابة على هذا السؤال ليست سهلة ميسورة لأنه من الضرورى أولاً أن نفرق بين العناصر المختلفة لنظرية كلاوزفيتز . . . . وثانياً بين العناصر الفردية التى قدم بها فكرته عن (الحرب العامة) أى عن الحرب فى جملتها ...

والواقع أنه من الممكن أن نقول — بالنسبة إلى عناصر نظرية كلاوزڤيتز — بأن بعض أجزاء هذه النظرية دون البعض الآخر قد تأثر بتطور صور أسلحة الحرب من مادية ومعنوية . . ، كما تتأثر بتباين أسلحة الضرب وتغير وسائل النقل . . . ؛ وكحديث عام فإنه من الممكن أن نقول بأنه حينما تحدث كلاوزفيتز عن النواحى الأساسية للحرب « كتنصيب القوى المعنوية » أو « الموهبة العسكرية » فى تحليله للقائد (الكتاب الأول — الباب الثالث) وحديثه عن « الجرأة والحذر » (الكتاب الثالث — الباب السادس) ، و « المفاجأة » (الكتاب الثالث — الباب التاسع) ، و «تأثير الإجهاد البدنى . . ونقص أو قلة المعلومات عن العدو» (الكتاب الأول — البابان الخامس والسادس) ، أو فى حديثه عن الأصول القاعدية « كادخار القوى » . . أو فى الحديث عن « الاحتياطى الاستراتيجى » كان يصل إلى الأعماق . . وسواء أكان هذا عن توفيق أو عن موهبة فذة فإن تعاليم كلاوزڤيتز تبدو اليوم متمشية مع العصر الحديث وكأنها وليدة آراء كاتب عسكرى من أقدار كتاب اليوم . . . ، فإذا تركنا هـــذه التعاليم الخاصة . . ووقفنا بإزاء تعاريف كلاوزڤيتز الأساسية للاستراتيجية والتكتيك والمعركة فإنا نجد هــذه التعاريف برغم التغييرات فى آلات القتال وأساليبه وبرغم الأحوال البسيطة لمعارك العصر النابوليونى التى اقتبس منها كلاوزفيتز لها قيمتها التعليمية الصـالحة . . . للعصر الحالى . .

وعلى نقيض هذا فإن عناصر أخرى كثيرة من نظريته قد بدأت إن كثيراً أو قليلا تبعاً للتطورات الثورية فى صـناعة الحرب التى حدثت مع تطور

الزمن .. ولكن مع هذا فلا يمكن القول اطلاقاً بأنها قد باتت من تراث الماضى ويجب أن ننفض أيدينا منها .

على أن المبدأ الذى جاء به كلاويزفيتز من أن الحرب ليست إلا تكملة للسياسة ولكن فى صورة وأساليب وأخرى من الناحية العامة .. لا يزال إلى اليوم حقيقة منطقية كما كان يوم أن وضعه كلاويزفيتز ، بل أن هذا المبدأ يعتبر مرشداً عملياً للتنسيق بين الإدارة السياسية للدولة والإدارة العسكرية للحرب ، ولكن كل ما تبدل فى هـذا المبدأ هو التوصيات التى جاء بها كلاويزفيتز ، وعلة هذا التغيير هو الاتساع الهائل لنطاق مستلزمات المجهود الحربى إلى درجة ما كان يمكن أن تخطر لـكلاويزفيتز فى عام ١٨١٥ أو بعد هذا بقليل . .

ومن السهل نسبياً — فى هـذه الحال على التخصيص — أن تعدل مقترحات كلاويزفيتز لتتمشى مع الأحوال الحالية . . وإن كان هذا ليس مستطاعاً فى كل حال . . ، ومن بين أهم تعاليم كلاويزفيتز التى أثارت اعتراضات كثيرة .. قوله ..بأن الدفاع أقوى صور الحرب (السلبية القصد) وكان من الممكن أن لا يكون صحيحاً ما وجه لهذه النظرية من نقد لو كان كلاويزفيتز قد أوضح ... ماذا يقصد بالدفاع . . وعلى الأخص إذا كان قد أوضح صراحة بأن هذه الأفضلية التى قدرها للدفاع إنما هى مبدأ عام ، أو لو كان قد قال بأن القوة الـكبرى التى للدفاع فى أى وقت إنما تستند — بالإضافة إلى الأفضلية العـــامة — إلى عدد من العوامل القوية أهمها التسليح الفنى ووسائل النقل ... هذه العوامل التى تبسط الأفضلية العامة فتسبب تبدل اتجاهها حيناً فى جانب وحيناً فى جانب آخر ، وهذه مسألة

ليست فى حاجة إلى تطور بعيد المدى لإثبات صحتها . . . فإن كلاوزڤيتز نفسه فى الكتاب السادس قد قام موجزاً مجملا للقوى النسبية بين الهجوم والدفاع منذ حرب الوراثة الإسبانية حتى العصر الذى عاش فيه..، ولكن التطور الفنى السريع فى عصر حرب واحدة تمكننا من أن نصل إلى إدراك القوى النسبية بين الأصلين الأساسيين فى الحرب ، كما نرى فى التطاحن الواضح بين هجوم الدبابات وأسلحة الدفاع ضد هذه الدبابات فى عصر واحد هو الحرب العالمية الثانية .

وكنتيجة لفشل كلاوزڤيتز فى التفرقة بين الصورتين المختلفتين للدفاع فإن هذا الجزء من نظريته بات جامداً صعب الفهم . ، ولعل كلاوزڤيتز نفسه كان غير راض عنها بالصورة التى وصلت إلينا لأنه فى آخر مذكرة له عندما ختم الكتاب السادس الذى تحدث فيه عن هذه النظرية قرر أن الحديث محاولة ليس إلا ، وأنه كان يمكن أن يقدم حلاً آخر خلاف هذا تماماً لو كان قد أعطى الوقت الكافى ليفعل هذا ..

وبذلك فإننا لا يمكن أن نصل إلى أجابة منطقية عن صلاحية كل العوامل الفردية فى نظريته ، فان جزءاً كبيراً منها بقى صالحاً لا يتطلب أى تغيير بينما باتت أجزاء أخري أهمها الكتاب الخامس الذى تحدث فيه عن القوات المقاتلة قد بات من تراث الماضى ولا يصلح البتة لشيء ..، وفى الوقت نفسه يمكن أن يقال عن أجزاء أخرى كنظريته فى تنسيق السياسة والاستراتيجية بأنها يمكن أن يعاد تعديلها بسهولة لتتفق مع الأصول المتغيرة ، بينما يمكن أن يقال عن غيرها كنقاشه فى الدفاع بأنها قد تركت غير كاملة ... وكلها مسائل كانت تتطلب إيضاحاً تفصيلياً لتبدو مفهومة واضحة . .

على أن هذا كله يترك مسألة التساؤل عن أعماله جملة بغير اجابة كاملة ...

ولقد أكدنا فيما سبق من حديث .. كيف كانت فكرته عن (الحرب الجامعة) تكون أهم جزء فى أعماله ، ثم كيف أراد بالإضافة إلى هذا كله أن يهيء قراءه إلى الصورة المتغيرة للحرب وإلى العوامل الكثيرة التى تؤثر فيها والغير مقدرة تقديراً كافياً ..، وقد عنى بهذا كله عناية أكبر من عنايته بأن يوجه تفكيرهم إلى تعاليم ثابتة النواحى محددة خاصة .

وقد يكون من سوء جد كلاوزفيتز حقاً أن تبيت هذه الصورة العامة للحرب ــ والتى بذل فيها جهده الرئيسى ــ فكرة قديمة بالية ..، فقد كانت هذه هى صورة الحرب التى كانت فى العصر الذى عاش فيه قبل ان يجىء هذا التغيير الكبير فى الحرب نتيجة للثورة الصناعية التى لم تبد مؤثرة حتى مر عصر كامل من وفاة كلاوزفيتز ..، أى فى أيام الحرب الأهلية الأمريكية ، ثم كان من تطورها فى أيامنا هذه أن أوجدت ما وسمناه (بالحرب الصناعية) .

وقد نكون نحن أنفسنا لا زلنا فى منتصف هذه الثورة ..، ولهذا فمن المحال أن نستطيع إدراك حقيقة تطوراتها .. وما يمكن إطلاقا أن ندرك الصورة الكاملة لها .. ذلك لأن هذه الثورة التى بدأت منذ بعيد لا تزال تتطور فقد وضح أنها ليست فقط تغيراً فى الأسلحة والأساليب الفردية كاستخدام القولات المدرعة وجنود المظلات والتدمير الإستراتيجى وغير هذا من الصور التى يمكن أن تجيء بها الحرب .. بل هى أبعد

من هـذا بكثير فهى ثورة عنيفة فى كل نواحى الاقتصاد الاجتماعى .. والنواحى الفنية للحرب بل وفى النسيج السكلى لها ..، وهى أيضاً أكبر تطور حدث فى الحرب من قبل . . . ، هذا التطور الذى فصل الصورة الحديثة للحرب الصناعية عن أية صورة أخرى سبقتها من صور الحرب .

وقد يكون من الممكن أن يقال بأن هذه الصورة العامة التى قدمها كلاوزفيتز للحرب عامة تعتبر فى جوهرها وأسسها قديمة أما تفاصيلها التى يمكن أن تعدل لتتمشى مع وسائل الحرب الحديثة فمن الممكن أن تتجدد لتماثل روح العصر . . . ، على أن معنى هذا فى وضوح وجلاء هو أن هذا الجزء من أعمال كلاوزفيتز يكون قد ضاع هباء لاقيمة له .. ولكن هل يمكن تقبل هذا ؟ . . .

فى رأيى أننا يجب أن لا ننظر لهذا الحديث لسببين اثنين ؟ ! !

أولهما ولو أن الصورة العامة التى قدمها للحرب ليست ثابتة ولا تعتبر في جملتها قانوناً لا يتبدل .. ولكنها لا تزال تقدم لنا الأنموذج الذى نصل منه إلى دراسة ضافية لنظرياتنا الحديثة عن « الحرب الصناعية » لأنها تمكننا من أن نفعل كما فعل هو فى صور الحرب التى تقدمتها . .

وثانيها : أننا نستطيع أن ننتفع منها « كقاعدة مضادة » أى كشىء نوازن بينه وبين غيره من المقارنة .

* * *

والواقع أنه على نقيض الثورة الاستراتيجية التى جاء بها نابليون ، فان تحول الحرب نتيجة للثورة الصناعية كان عملية بطيئة تمتد إلى أكثر من ثلاثة عصور . . ؛ ولهذا لم يكن هناك تباين ظاهر يفصل بين فترة

« الحرب الصناعية » وحرب « الفترة التى سبقت الثورة الصناعية » .
كما يوجد فرق واضح مثلا بين « أسلوب حرب القرن الثامن عشر »
و « أسلوب الحرب النابليونية » ؛ وكنتيجة لهذا فإن أراءنا عن الحرب
اليوم — على الأقل بالنسبة لأننا حضرنا أو درسنا صورتين من صور
الحرب أقربهما إلينا الحرب نصف الذرية — يجب أن تكون مضطربة
تشتعلهاأراء قديمة وأخرى حديثة ، ولهذا فإننا مهما حاولنا لا نستطيع
أن نخرج منها بوضع صورة تفصيلية ضافية للأساليب الجديدة منتزعة
وحدها عن غيرها . . مفصولة عن سواها من الأساليب والصور ...

وهنا يمكن أن نثب مرة أخرى إلى الضوء تلك الصورة التى وضعها
كلاويز فيتز للحرب عامة كأنموذج مثالى للخطوات والمراحل التى يجب
أن تقدم بها النظريات الفنية لدراسات الحرب ، واعتقد أن حديث
كلاويز فيتز مهما أسرف بعض الناس فى نقده إنما يكشف لنا عن
الصورة الحقيقية للتغيرات التى حدثت فى الحرب كما يمكننا من توضيح
طبيعة الحرب الصناعية بدرجة أكبر مما كان فى استطاعتنا أن نصل إليه
منتفعين بأى تحليل آخر . . . ، بل ويعاوننا فى الوصول إلى ما يوضح
لنا صورة الحرب الحديثة عندما نقارنها بتلك التى جاء بها كلاويز فيتز
من النموذج النابليونى . . .

ولكن . . . الوصول إلى هذا يتطلب منا بلا شك أن نعنى أولا
بتعاليم كلاويز فيتز . . . وأن ننصرف إلى دراسة هذه التعاليم غاضين
النظر عن حملات النقاد الذين يحاولون فى إسفاف أن يقللوا من قيمتها
بالرغم من أنها كانت موضع عناية الكثيرين من أساتذة الفن فى هذا
القرن الذى مر منذ نشرها للقراء . . .

الصعاب

التي يجب التغلب عليها

ولكن هناك صعاب .. ، وهي صعاب يجب أن لا ينظر إليها .. ، على أساس أنها ناشئة عن الجهود التي يجب أن تبذل في دراسة آراء ونظريات قديمة كتبت بأسلوب خاص .. أو أنها تستلزم ممن يدرسها أن يعيش في صورة العصر الذي كتبت فيه هذه الآراء والنظريات ، وهذه كلها مسألة مجهدة مافي هذا من شك .. ، بل قد يكون هذا لاوجود له .. ، فالصعوبة هي أننا في إعادتنا النظر إلى آراء كلاوزفيتز يجب أن نتغلب على الاختلافات الموجودة في هذه التعاليم والتي لا تقبل التمشي مع بعضها البعض .. ؛ ثم هنا شيء آخر يجب أن نقدره هو أن كل تعاليم كلاوزفيتز ونظرياته في الاستراتيجية قد جاءت على طوال صفحات كتبه مبتورة غير كاملة .. فأينما وقف القارىء بازاء شيء منها وجده كجسم بلا رأس .. ولهذا لا نستطيع أن ندرك لب الموضوع كله إلا إذا نجحنا في اختراق الصورة الذائعة وليدة الصدفة التي جاءت فيها آراءه ، ولا أظن أن هذا النجاح مستطاعاً إلا إذا تعقبنا أياً من نظرياته على طول الفصول التي ساقها فيها ثم نجمل هذ القطع إلى جانب بعضها البعض لنكون منها صورة كاملة

وهــذا أمر مجهد لا يستطيعه القارىء العادى الذى يريد أن يصل إلى شىء ما بسرعة .

وقد أكد كلاوزفيتز فى مذكرة له كتبت ولا شك فى الوقت الذى انتهى فيه من كتابه بأن ماجاء فى الكثير من سطوره ليس أكثر من مواد كان كل قصده منها أن يبنى نظريته الحقيقية الضافية التفاصيل للحرب.

وقد نقلت هذ الكلمات كلما تداولت الأيدى كتب كلاوزفيتز .. ولكنها لم تقدر جديا ولم تلق حظها من العناية التى تستحقها لأن هذه الكلمات لا تعنى شيئاً أقل من أنها غير كاملة بل وفوق هذا أنها غير مفشقه لا تتمشى نواحيها مع بعضها البعض ..، ولعل هذا كله لم يكن أكثر من خواطر مرت به مع مسار الأيام التى تمتد لأربعة عشر عاما .. هى الأمد الذى سجل فيه خواطره فى كتبه حتى انتهى منها قبيل وفاته الفجائية ... ولو كان كلاوز فيتز قد عاش لبعض سنين أخرى لكان قد عاد إلى كتبه وعدل من أغلب سطورها ..

وقد يقال وفيم العجلة ... ولم يكن كلاوزفيتز متمهلا وهو قد حذر عند ما بدأ يكتب مؤلفه أنه سيسبب ثورة فى الأفكار .. ولعله كان أصلح لكلاوز فيتز أن يتم جزءاً كاملا من كتابه عن أن يقدم للناس كتابا كبيراً ملىء بتعاليم فيها نقد ...

ولهذا يجب أن نقدر أن كلاوزفيتز كان تواقا ليكتب كتابا عن الحرب لا يمكن أن ينسى فى عامين أو ثلاثة ... ولهــذا كان متعجلا فأدرك يوم وفاته جانباً من قصده عند ماوصل إلى كتابة مجموعةمقالات (كلاسيكية) فى فن الحرب ...؛ ثم الشىء الآخر هو أنه مهما كان رأى النقاد فى هذه

التعاليم فقد سيطرت على العقلية البروسية .. وكانت ستظل أساس التعاليم العسكرية الألمانية ...

وكان مثل كلاويزفيتز للألمان مثل « سوفوروف » للروس لتعاليمه قدسيتها وكأنها جزء من التراث القومي ...

* * *

إن هذه الخواطر إنما توضح المراحل المختلفة الفسيحة الأخيلة من تفكيره والتي توضح أيضاً تباين الصور الحيوية التي يعيش فيها والآراء المختلفة التي كانت تحتـــاط به . . فالغريب أن نظرتيه كلهـــا تتبع الأسلوب النابليوني بينما نجد بعض فصول كتابه — وعلى الأخص الفصل السابع عشر من الـكتاب السابع — توضح صورة أخرى مختلفة تماما في الاستراتيجية وفن الحرب ، وفي غمرة هذا التناقض الـكبير بدا أن الأمر غير ممكن إيضاحه مع أن هذا الايضاح في الواقع سهل ميسور ، فاذا عرفنا أن الخلاف بين صورة الاستراتيجية النابليونية وصورة إستراتيجية العصر الذي سبقه كان هذا هو الأساس الذي أوجد عبقرية كلاويزفيتز ، ولهذا فانه عندما بدأ يجسم نظريته صورها بالطبيعة في الصورة النابليونية ، ولـكن في غمرة إدراكه الدقيق باختلافها الـكبير عن الصور الأخرى لم يتيقن مما يجب أن يفعل في الصور الأخرى ... هل يغفلها كلية.. فان لم يكن هذا فكيف يمكن أن يدخلها في أصل مخالف لها ؟!! والأجزاء المختلفة من كتاب « في الحرب » تبدي بوضوح الحلول المتباينة التي حاولها الواحد بعد الآخر لمواجهة هذه المشكلة المحيرة ، وأحد هذه الحلول في إيجاز هو أن يضع صورة إستراتيجية غير النابليونية مع النابليونية جنباً إلى جنب في بعض نقط مختارة من البحث الذي يقدمه ...

على أن هذا ليس هو الاعتراض الوحيد على عمله فنحن مثلا قد نقف أمام اضطراب كلاويزفيتز هذا الاضطراب الذى لا يرجع إلى تفكك وعدم ترتيب نظرياته بقدر ما يرجع إلى أن كلاويزفيتز لم يستطع أن يجعل نفسه مفهوما لقرائه ...، وكم كان من السهل أن يكون كلاويزفيتز مفهوما لو كان قد تبسط فى حديثه وجمع خواطره فى الموضوع الواحد بدلاً من بعثرتها على طول فصول مؤلفه .. ولهذا فإنه بالرغم من محاولته إيضاح قصده فى بعض الفصول فإن الكثير من علامات الاستفهام التى يضعها القارىء تبقى فى مكانها دون نتيجة ...

وأحد أسباب غموض العرض الذى قدم به كلاويزفيتز آراءه هو انه لم يحاول التبسط فى هذا العرض ... ولعل كلاويز فيتز كانت تسيطر عليه عقلية علماء القرن السابع عشر الذين أبوا التبسط ترفعاً بالعلم حتى لا يكون فى مستوى المتعلمين العاديين ..، فقد كان لزاما على طلاب العلم أن يكافحوا لادراك مرامى الكتاب وأهدافهم ، وهو أمر كان من الممكن التقليل منه لو كانت هذه المؤلفات قد طبعت فى حياة كلاويز فيتز .

والواقع أيضاً أن كلاويز فيتز فى غمرة شغفه بالموضوع الذى يكتبه اندفع فى التحرير فى الصورة التى أحس بأن الموضوع يتطلب أن يقدم فيها .. لا فى الصورة التى تمكن القارىء من إدراكها ... وهذه الرغبة ليست غريبة شاذة فى كل الكتاب الألمان ...، ونسى كلاويزفيتز أن ما يبدو واضحاً مفهوما له هو قد لا يكون كذلك بالنسبة لغيره من المطالعين ..

يقول هندرسون عن هذا فى صفحة ١٧٣ من كتابه (علم الحرب) «...وإذا كان نابليون قد قال إن القوى المعنوية نسبتها إلى القوى المادية (العدد والأسلحة والتدريب) كنسبة ٣ : ١ ، فان كلاويزفيتز يقول بأن

كل فرد يفهم ما هى القوى المعنوية وكيف تستخدم ... وفى غمرة عبقرية كلاوزفيتز كرر حديث نابليون فى صفحات مؤلفاته دون أن يعنى بإيضاحها. ذلك لأنه نابغة ، وتتوفر فى النابغـــين من الناس عادة غريبة هى أنهم يقدرون أن كل فرد يفهم تماماً ما يفهمونه هم ... »

ويتحدث ليدل هارت عن صعوبة دراسه كلاوزفيتز فى حديثه عن التسجيل التاريخى للاستراتيجية الانجليزية من كتابه (الاستراتيجية الانجلـــيزية) ... «... ولم أقابل الكثيرين الذين قرأوا كل مؤلفـات كلاوزفيتز فضلاً عن أن يكونوا قد هضموها وتفهموها ... فان كبر حجم هذه المؤلفات وتعقد الفلسفة التى فى سطورها هى التى عطلت تقريبها إلى أذهانهم ...، ولما كان الناس قد رضوا عن كلاوزفيتز كنا قل لتعاليم نابليون ومسجل لها .. فقد تبعته مدرسة من الناقلين لهذه التعاليم عن طريق مؤلفـاته هو وعرضه لهذه التعاليم فيها ، ونستطيع أن ندرك هذا بوضوح عند ما نقارن كتابات كلاوزفيتز بكتابات فوش فإنا نجد هذا قد نقل كل أراءه وتعاليمه عن كلاوزفيتز مباشرة ثم ترك لتلاميذه أن يثبوا بها إلى الصورة التى ترضيهم ، ولما كان فوش قد فعل الكثير ليوجه الفكر الاستراتيجى فى فرنسا قبل الحرب ثم بالتبعية الاستراتيجية الانجليزية إبان الحرب فقد بات من الضرورى أن تنشأ مدرسة ثقافية تدرس تعاليم كلاوزفيتز فى بريطانيا !!)

* * *

وهذه الصعاب التى فى مجموع بناء الكتاب كان لها تأثيرها الكبير فى القارىء غير الألمـانى بسبب عدم وجود ترجمة دقيقة بالانجلـيزية أو

الفرنسية لكتاباته وعلى الأخص لكتابه (فى الحرب)، وقد كان تأثير هذا كبيراً فإنه لم يسبب التفهم الصحيح لكتاباته ؛ والواقع أن كلاوزفيتز كان أحد سادة النثر الألمانى . وقوته ليست فى الآراء التى قدمها بل فى الصورة التى قدمها بها لتؤثر فى العقلية الألمانية . . . ، فلما ترجمت آراء كلاوزفيتز ترجمت الكلمات والسطور .. وبذلك فشل القارىء غير الألمانى وعجز عن إكتشاف مرامى كلاوزفيتز المرامى التى تبدو واضحة فى الأصل الألمانى للكتاب القيم ...

ويوجد سبب أساسى آخر يصعب إدراكه والتعبير عنه ، هو المشكل الذى تثيره أمام القارىء غير الألمانى مظاهر القومية التى فى كتابات كلاوزفيتز ، ولهذا فليس هناك خطأ أكبر من أن يقف القارىء اليوم أمام مؤلفات كلاوزفيتز ليناقشها كما يناقش أياً من مؤلفات أى كتاب عسكرى فرنسى وانجليزى من مؤلفى هذا العصر الذى نعيش فيه متناسين أنه فى مؤلفه كله من أولى صفحاته إلى صفحته الأخير يقدم عصراً يختلف عن عصرنا فى أسلوبه التفكيرى .

ولهذا لكى نستطيع أن نتفهم كل ما حاول أن يفعل وكل ما استطاع الحصول عليه لا يكفى فقط أن نترجم ما كتب .. بل يجب أن نمزق هذا الإطار القومى وأن نصل إلى أعماق فكره بدرجة تمكننا من تقديم آرائه فى صورة واضحة مفهومة ...، وإذا إستطعنا أن ننفض أيدينا من الفلسفة التيتونية التى غطى بها كلاوزفيتز كتاباته إستطعنا أن نتغلب على السبب الرئيسى الذى لأجله بقى كلاوزفيتز صورة باهتة خارج وطنه ولا شىء أكثر من هذا .

بعض خطوط الاقتراب العملية

وكل هـذا ـ بينما يعاونا على إيضاح التناقض الذى يسبب التأرجح بين المديح الذى يكال لكلاويزفيتز من جهة والنقد الذى يوجه ضده من جهة أخرى ـ قد يؤدى إلى الإيمان بأن مؤلفات كلاويزفيتز ذات نفع كبير للعسكرى الاخصائى الماهر عديمة النفع للجندي العادى ، ولكن لا شىء أبعد عن الحقيقة من هذا ، فان كل الأمثلة عن التعقد فى آرائه وعن التناقض فى مختلف نواحيها إنما تؤثر فى جانب واحد من عمله هو الجانب الفلسفى فهى لا تؤثر إطلاقاً فى الجانب الآخر . . . الجانب العملى . . . ؛ وناحيـة الجندية العملية فى كلاويزفيتز قد وضحت فيه تبعاً لتجاريبه الكثيرة ولمطالعاته الواسعة . . .

وهذه الناحية العملية هى فى الواقع أصيلة فى كلاويزفيتز الجندى لم تجئه عن طريق غيره . . ، وقد لا يكون نصيب نابليون أو شارنهورست فيها أكثر من الدافع الذى يقوى فى الكاتب عوامل الثقة والاعتداد بالنفس ، وهذه الناحية العملية التى وضحت في بعض النواحى المبسطة التى عرض فيها

كلاوزفيتز فى « لقطات تصويرية سريعة » للتكتيكات الصغرى والتى قدم بها نواحى التكتيكات العامة فى استخدام القوات المسلحة هى التى أوضحت الفرق بينه وبين چوميني الرجل الآخر الذى مكنه قربه من نابليون أن ينقل الكثير من تعاليم نابليون ليخرجها للناس .

ولعل هذه الناحية العملية وحدها هى التى جعلت الكثيرين يحاولون دراسة كلاوزفيتز فى أصوله نفسها لا في الكتب التى حاولت أن تقربه للقراء ، ولكن هذا قد لا يعنينا كثيراً بقدر ما يعنينا أن هذه النواحى العملية كان نصيبها كبيراً من تقدير المدرسة الألمانية وعنايتها ، ومن تعقب مختلف نواحيها بالدرس والتطبيق ، فكانت هى الأساس الثابت الدعائم لكل التعاليم التى جاءت مبسطة فى المدرسة الألمانية الحديثة منقولة عن الأصل الدسم الموفور الفن .

يقول توماس فيليبس فى مقدمة كتابه « أصول الاستراتيجية » أن التعاليم التى ملأت صفحات كتابه « فى الحرب » هى التى أوجدت النظريات المعنوية التى تحكمت فى الحرب البروسية الفرنسية عام ١٨٧٠ ثم الحرب العالمية الأولى ، وقد نشر كتاب فيليبس عام ١٩٤٣ والحرب العالمية الثانية لا تزال فى اتون الدرس يعنى الكتاب ببحثها وتوجيه مختلف مراحلها إلى الأسس التى قامت عليها ، ولو كان فيليبس قد تمهل فى كتابه بعض الوقت لوصل إلى أن الحرب البرقية الصورة التى جاءت بها الحرب العالمية الثانية قد ولدت ونمت وترعرعت فى ذات الإطار الذى

صور فيه كلاوزفيتز تخطيطه العام للحرب الخفيفة الحركة الواسعة الأطماع ذات الأغراض غير المحددة ..

* * *

وقد أجد لزاماً على هنا أن أتمهل فى الحديث لأنظم مع القـــارىء نفسه كيف يجب أن نقرأ كلاوزفيتز حتى فى أعقد مؤلفاته « فى الحرب » وكيف يستطيع أن نصل إلى أعماق بحثه لنتفهم الأصول إلى قدمها فى نواحى كتابه . .

وقد يقال ببساطة أن تفهم كلاوزفيتز لا يتم إلا على أساس قراءة مؤلفاته أكثر من مرة .. على أن تـكون القراءة الأولى قراءة عابرة ليمـكن للقارىء أن يلم باطراف الأمر .. ثم تـكون القراءات التالية قراءة عناية ودرس وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة لدراسة مؤلفات فوش وهندرسون وفوللر وغيرهم وغيرهم من كتاب الاستراتيجية فهو ليس صحيحاً إلى غاية ما يمكن بالنسبة لمؤلفات كلاوزفيتز ..؟ بل الصحيح أن يقرأ كلاوزفيتز من البداية قراءة دراسة وتمحيص .. ولـكنها قراءة تستند إلى تسجيل جيد سريع للمواقف ..، فيقيد القارىء ما يخرج به من هذه السطور كل فى الأتجاه الذى هى أصلاً له .. ثم يجمع بين السطور التى تجىء فى كل ناحية ليخرج منها بفـكرة كاملة للموضوع الذى يعرض له ..

وفى هذا التسجيل الموجز سيجد القارىء نفسه أنه عاد فنقل مؤلفات كلاوزفيتز إلى الصورة التى كان يجب أن تـكتب فيها وإن كان أهم

ما يجب أن يلاحظه هو أن يدرك أن هذه السطور التي كتبها كلاوزفيتز قد كتبها إبان أمد قد طال لعدة سنين ولهذا يجب أن يقدر تأثر دراسة صاحبنا ومعالجته الأمور في ضوء خلجات نفسه وخواطرها ..

وقد لا يفلح القارىء في إدراك هذا لأول وهله .. فلا يجزع للفشل وليثق بأن كتاب « في الحرب » وحده قد قضيت قرابة العـــام أقلب صفحاته حتى ضقت بصاحبه ولكن لم ألبث أن أنست إليه واستطعت أن أتتبع كلاوزفيتز راضياً عن جهدي في قراءته .

وكان كلاوزفيتز يستحق مني أضعاف هذا الجهد

أوجه النقد في تعاليم كلاوزفيتز
في رأي ليدل هارت ..

وإذا كنا قدمنا كلاويزفيتز في ضوء تعـــاليمه ، وفي ضوء هذه الدراسات التي كتبها عنه أولئك الذين مجدوا هذه التعاليم في دراستهم العميقة لها .. والجهد الكبير الذي يبذل لتفهمها مع العناية بالانتفاع بهذه التعاليم إلى الحد الذي يتمشى مع صور الحرب البرقية التي أوجدها هذا العصر الذي نعيش فيه ، فقد يكون لزاماً علينا أيضاً أن نقدم كلاويزفيتز في رأى نقاده ..، وأوجه النقد في تعاليم كلاويزفيتز كثيرة سيما إذا قدرنا كراهية أبناء صناعة الحرب للتعاليم التي تنتقل من عصر إلى آخر مع ثباتهـــا في رأى الناس كمراجع يعتز بها ..، ذلك لأنهم يؤمنون بأن تغير صورة الحرب وتطور تطبيق أصولها .. والاستحداث والاستخدام التكتيكي والفني للأسلحة المقاتلة .. كل هذه تتطلب أن ينفض الناس أيديهم من تعاليم الماضي كمراجع تتبع وإن كان لزاماً أن تطالع إلى جانب ما يدرس من حملات كبار القادة في عصر تلك التعاليم

على أن أولئك الذين تعرضوا لنقد كلاويزفيتز أختلفوا بين قوم

صوروه كشبح لجنرال متقاعد قد ضاع أو أن يضيع مع الهواء ..، وقوم قالوا أنه يجب مراجعته فى ضوء العصر الحديث لنعدل من تصويره الفلسفى الذى ساق تعاليمه فى غمرته ، وسأقف بك فى هذه الصفحات عند رجل بين هؤلاء وهؤلاء .. هو ليدل هارت ..، وإن كان ليدل هارت فى الواقع قد جنح فى كتاباته إلى ناحية لم يكن من الإنصاف أن يجنح اليها ولكن هـــذا التقديم لا بد منه على الأقل لنسجل رأى رجل له ثقافته وله مدرسته .. ورجل من أنبه رجال الاستراتيجية شأناً فى هذا العصر الذى نعيش فيه .

يقول ليدل هارت فى كتابه (أسلوب الأنجليز فى الحرب) صفحة ١٤ وما بعدها تحت عنوان « خطأ إيضاح تعاليم نابليون »

والنظريات الثلاث الرئيسية فى تعاليم كلاوزفيتز والتى عاد فوش فكررها هى :

١ — نظرية الحرب المطلقة والتى أدى تطورها إلى إيجاد الأمم المسلحة . .

٢ — نظرية ضرورة الاحتشاد ضد العدو الأســـاسى الذى يجب تدمير قواته أولاً

٣ — نظرية أن القوات المسلحة هى التى تكون الغرض الحقيقى وأن المعركة هى الوسيلة الوحيدة لإدراك هذا الغرض ..

* * *

وفى تقريظ نظرية العنف غير المحدد يقول كلاوزفيتز « إن من يستخدم قواته دون أى أقتصاد فيها ودون أى أعتبار للدم لابد أن يدرك غرضه إذا لم يفعل عدوه بدوره ما يفعله هو .. » ثم يقول .. « إن أى

تحديدات لهذه النظرية إنما يرجع إلى الشعور بالأنسانية وهذا هو أسوأ المخاطر » ، والغريب أن كلاوزفيتز قد فشل فى إدراك أن هذا قد يرجع إلى تفكير سياسى يستند إلى مصالح خاصة ، وقد قال إن انتصارات الثورة الفرنسية ترجع إلى حقيقة واحدة هى « القاء كل ثقل الأفراد والقوات إلى الميدان (مع إلقاء تقدير قليل للمحالفات العسكرية .. التقدير الذى أضعف قوة الدولة .. وجعل العناصر المقاتلة تابعة للسياسة وبذلك أستطاع الجيش الفرنسى أن يكتسح ممالك أوروبا)

وقد نسب فوش هزيمة فرنسا فى عام ١٨٧٠ إلى أغفالها نظرية (الحرب المطلقة) التى علمها نابليون لأوروبا « نظرية شعب مسلح منظم للغزو وليقاتل إلى النهاية » ، وفى رأى فوش كما فى رأى كل أهل أوروبا أن حرب عام ١٨٧٠ قد أثبتت أن نظرية كلاوزفيتز للحرب المطلقة صحيحة لا يتسرب اليها الشك ..

ولكن هل هذا صحيح ؟ ! !

هل هناك حقاً ما يمكن أن يوسم بعنوان « الحرب المطلقة » منذ أن توقفت الأمم عن استعباد المهزومين ؟!!؟ لقد نفضت أوروبا أيديها فى القرن التاسع عشر من كل مؤثرات المغول (١) ..؟ فاذا قلنا إن اصطلاح « الحرب المطلقة » يعنى القتال حتى تجهد طاقة أحد الجانبين فلا يستطيع

---

(١) على نقيض ما يقوله ليدل هارت نثبت أن أوروبا لم تنفض يديها ولن تنفضها من بقايا تعاليم جنكيز خان .. فقد استعبدت المانيا شعوب أوروبا المحتلة . . فلما انقلبت الأوضاع استعبد الشعب الالمانى وعلى الأقل أولئك الذين يقيمون فى شرق المانيا

المقاومة فان معنى هذا بالتجربة أن الجانب المنتصر لايكون صالحاً لا كتساب ثمار النصر ، أو بمعنى آخر فإن الحرب المطلقة هى التى لا يعرف من يثيرها حتى يتوقف عن القتال ، ذلك لأن النهاية يجب أن تتعقب دون أى تقدير لما يكون بعدها ، فاذا كان هذا هو التعريف المنطق للطاقة ... فقد نرى أن سانت هيلانه هى الدليل على أن نابليون هو صاحب هذه النظرية !!! ولكن لا شك أن بسمرك لم يتفق مع هذا الرأى فى حرب عام ١٨٨٠ ومهما كان تقدير خلفاؤه للكسب السريع الرخيص الذى حصلوا عليه فان مبادىء بسمارك كانت كمبادىء الساسة الانجليز الذين بنوا الأمبراطورية البريطانية فانهم كانوا يحاربون إذا توفر الكسب ... ويتجهون إلى السلم عند ما تتوقف المنفعة من الحرب ...

* * *

فاذا انتقلنا إلى ضرب القوة الأساسية للعدو أولا ومباشرة فانا نجد حديثين لنابليون قد ذكر الدعم ما قدمه كلاوزفيتز ، أولهما ... « أن النمسا هى العدو الأساسى فاذا سحقت النمسا انهارت إسبانيا وإيطاليا وحدهما .. ولهذا يجب أن لا نوزع هجماتنا .. بل نحشدها .. »

وثانيهما ... « أنى أريد شيئاً واحداً هو الحشد .. وأحاول أن أدمره شاعراً بأن كل ماعدا هذا الحشد سينهار وحده »

وكلا الاصطلاحين له وضعه الذى يختلف به عن الآخر إذا أجهدنا أنفسنا لنكشف الظروف التى قيل فيها كل من الحديثين ، فالأول جزء من تقدير الموقف وضعه نابليون قبل عام ١٧٩٦ بسنتين ؟ ولعله بعد أن قال إن النمسا هى العدو الإساسى أضاف « ولهـذا فمن الضرورى —

وإلى غاية ما يمكن — يجب أن توجه ضربتنا مباشرة [أو غير مباشرة] إلى هذه الدولة » ؛ ولا شك أنه لم يقترح هذا — مباشرة — لقوله : « ولكي نوجه ضربتنا إلى النمسا يجب أن نسحق (بيمونت) الدولة الصغيرة التي لا شعور أهلي قوي فيها ، ثم أن النمسا يجب أن تجيء بجنود من الراين لتدافع عن نفسها في إيطاليا وبذلك فان جيشاً على الراين يستطيع أن ينتفع من الضعف الذي لحق بالجيش النمسوي الذي يواجهه .. »

وقد نفذ نابليون هذا البرنامج بعد عامين اثنين ، على أن السبب في تعطيل التحرك ضد أسبانيا هو صعوبة مهاجمتها ، وقد أضاف إلى هذا أن التحرك ضد بيمونت سيكون له تأثيره على بولنده ويشجع سلطان تركيا »

ولكن عند ما قام نابليون بتوجيه هجومه في إيطاليا وواجه بجيش بيمونت الضعيف وبالجيش النمسوي القوي والح (كارنو) Carnot صاحب نظرية التقدم نحو الأقوى أن يتجه الفرنسيون مباشرة نحو ميلان والجيش النمسوي .. أبى نابليون هـذا العرض وفضل أن يضرب عند نقطة الاتصال بين الجيشين فأخاف النمسويين وأربكهم ثم دار نحو جيش بيمونت الشريك الأصغر ودمره ، وكانت النتيجة في جانب تقدير نابليون ...

ولهذا فان الحديث الثاني يجب أن يحكم عليه في ضوء الحوادث التي تعتبر أصلاً له ، فالواقع أن نابليون بعد ان سحق الشريك الاضعف دار نحو الشريك الأقوى ساحباً قواته إلى المواقع التي في صالحه لا في صالح الخصم .. ثم واجه قوات هذا الشريك القوي في أقسام ؛ ولهذا فمن الضروري أن ندرك أن نابليون قد قصد حقاً سحق الحشد الذي يواجهه ، ولكنه عند تنفيذ قصده هـذا دمر هذا الحشـد على مراحل ؛ فإذا ادركنا

هذا بدت لنا حقيقة واحدة هى أن نابليون فى تعاليمه التى قدمها كلاويزفيتز قد ذكر الخاتمة الواضحة ولكنه لم يذكر تفاصيل التنفيذ ..

على أن حملة عام ١٧٩٦ تمكننا أيضاً من ادراك وتفهم النظرية الثالثة الرئيسية فى نظريات كلاويزفيتز ، وهو يقول صراحة .. أنه توجد طرق كثيرة لادراك الغرض السياسى من الحرب ، إلا أن الوسيلة الوحيدة هى القتال أى أن كل شىء يخضع لمبدأ الاقرار بقوة السلاح »

ولم يتوضح فى حديث كلاويزفيتز الفرق بين الطرق والوسائل ، على أن أتباع مدرسته الثقافية لم يفكروا إلا فى قوله « المعــــارك هى العوامل المقررة للغرض وكل صور النشاط الأخرى هى وسائل موصلة لها فقط » فلما نقل فوش حديث كلاويزفيتز زاد من ضيق المعنى بقوله ولا توجد استراتيجية افضل من تلك التى توجد بقصد إدراك النتائج التكتيكية أى استراتيجية الانتصار بالقتال !! » ؟ وبدلا من أن يرى كلاويزفيتز التكتيك كآلة من آلات الاستراتيجية جعل الاستراتيجية قوة موجهة للتكتيك (الاستراتيجية لا توجد وحدها والنتائج التكتيكية هى كل شىء) ...و... (الحرب الحديثة لا تعرف شيئاً إلا الحقيقة التكتيكية .. أى المعركة ..) ..و.. (المعركة هى الجدل الوحيد فى الحرب ولهذا فهى النهاية الوحيدة التى تنتهى بها العمليات الاستراتيجية)

ولقد نظر فوش إلى قادة القرن الثامن عشر ووقف بازاء كلمات المارشال ساكس والتى جاء فيها « اننى لست فى جانب خوض المعارك ولا سيما فى بداية الحرب » ووضع قبالتها حديث نابليون « لا يوجد شىء أحبه أكثر من معركة كبيرة » ثم عقب فوش على هذا بقوله « ... الأول يريد أن يتجنب المعركة فى كل حياته والآخر يطلبها فى أول فرصة »

وإنى وإنّ كنت لا أزعم لنفسى أن كلاوزفيتز يخلو من النقد .. فما وصل إلى الكمال العلمي شخص ما مهما أوتى من الحكمة والذكاء ..، ولكن فى رأيى أن أهم نقد يمكن أن يوجه لكلاويزفيتز فى الواقع هو تعريفه للاستراتيجية فهو يقول « فن استخدام المعارك كوسيلة لإدراك الغرض من الحرب .. أو بمعنى آخر أن الاستراتيجية تكون خطة الحرب ثم هى التى تصور طرق الحل المفتوحة لمختلف الحملات التى تكون الحرب وتنظم المعارك التى تقاتل في كل ميدان » ، وهذا التعريف فى الواقع يتدخل فى الإدارة العليا للحرب ، هـذه الإدارة التى يجب أن تكون مسئولية الحكومة وليست مسئولية القادة العسكريين الذين تستخدمهم الحكومة كعملاء لها فى تنفيذ العمليات .

وتحطيم الفاصل بين الاستراتيجية والسياسة قد لا تكون له قيمة فى الأحوال التى يخضع فيها الأمر إلى شخص واحد كما كان الحال فى فردريك الأكبر ونابليون ، ولكن الملوك القادة ليسـوا كثيرين ولهذا فإن تأثير هـذا التعريف كانت له خطورته لأنه شجع العسكريين على أن يطلبوا أن تتبع السياسة ادارتهم للمعارك وبذلك اتجه السياسيون بدورهم إلى أن يشقوا طريقهم إلى الجو العسكرى للتدخل فى استخدام آلة الحرب .

والصلة بين السياسيين والعسكريين تتطلب منا حديثاً خاصاً مطولاً .

* * *

أما ما يقال بعد هذا فى تعاليم كلاويزفيتز من الناحية التكتيكية والاستراتيجية . . فمن الضرورى أن نقدره على قياس التصور الصحيح

للعصر الذي جاء فيه الكاتب . ؛ والصورة التي استطاع أن يخرج بها من دراسة الأصول والأوضاع في ذلك العصر وفي العمليات الحربية التي كانت في أيامه أو سبقته ..، وإذا كنا لا نزال ندرس أصول الاستراتيجية التي جاء بها صن تزو وفيجيتس وساكس وفردريك الأكبر .. لنخرج منها بصور التطبيق المتغيرة لأصول الحرب الثابتة ، وندرس أيضاً معارك هانيبال واسكندر وقيصر لدراسة الأصول التكتيكية التي فيها ـ فليس أقل من أن ندرس الأصول والتعاليم التي جاء بها كلاويزفيتز وهو رجل مهما أختلفت الأراء في تقدير قيمة تعاليمه بالنسبة للعصر الذي نعيش فيه .. فانه بالصورة التي نقلها عن نابليون وبالتجارب التي أوجدتها فيه المعارك التي خاض غمارها ..، ثم بالموهبة الشخصية التي كانت كامنة فيه.. يعتبر دون جدل سيد الأصول والتعاليم التي ندرسها اليوم والتي سنظل ندرسها حتى يمكن أن توجد في العالم شخصية أخرى كنابليون تقلب الأوضـــاع والأصول وتوجد وسيلة أخرى للقتال غير الجنود الذين يسيرون على أقدامهم أو يمتطون الآلات ذات الاحتراق الداخلي أو يهبطون من الجو بالمظلات !!

ولكن متى يمكن أن تجيء هذه الشخصية ؟

وإلى أن يجيء هذا القائد العسكري النابغة ينبغي أن نلم بتعاليم كلاويزفيتز لانها تراث يستحق كل عناية وتقدير

انتهى بحمد الله